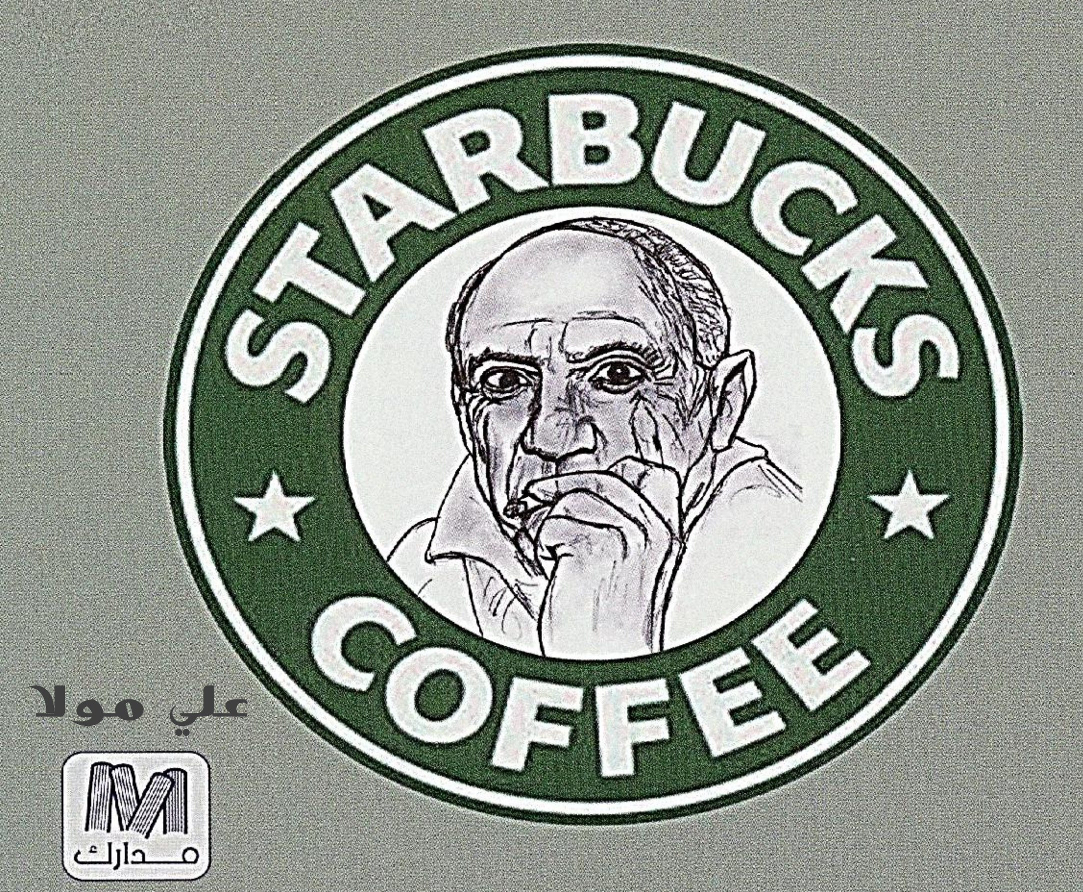
الطبعة الثالثة

بيكاسو وستاربكس

ياسر حارب



علي مولا

مدارك

ياسر حارب

بيكاسو وستاربكس

الكتاب:
بيكاسو وستاربكس

التصنيف:
اجتماعي

المؤلف:
ياسر حارب
www.yhareb.com
yasser.hareb@gmail.com

الناشر: **مدارك** إبداع، نشر، ترجمة وتعريب

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2011
الطبعة الثانية: مارس (آذار) 2011
الطبعة الثالثة: أبريل (نيسان) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-23-8

الكتاب متوفر على الإنترنت: مكتبة نيل وفرات. www.nwf.com



Tel.: 009611 282075 - Fax: 009611 282074
Gharios Center, Forn Elchebbak, Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
سنتر غاريوس، الطابق الرابع، فرن الشباك، بيروت - لبنان


بيكاسو وستاربكس

إهداء

إلى زوجتي

التي تضع قلماً ودفتراً بجانب رأسي

كل ليلة حتى أكتب أكثر.

الفهرس

مقدمة

«في ستاربكس عليك أن تتخذ ستة قرارات لتشتري كوب قهوة واحد. قصير، طويل، خفيف، ثقيل، بدون كافيين، مع حليب قليل الدسم.. وبالتالي يمكن للناس الذين لا يستطيعون اتخاذ أيّ قرارات في حياتهم، والذين لا يعرفون من هُم أو ماذا يفعلون على الكرة الأرضية، أن يشعروا بالرضى عن أنفسهم لأنهم استطاعوا أن يشتروا كوب قهوة صغير» هكذا يُعرّف الممثل الأمريكي (توم هانكس) مقهى ستاربكس في فيلمه الرائع (استلَمتَ بريداً) حيثُ يرى فيه مكاناً يُغويك بإدمانه، ولا يلبث أن يفرضَ عليك نمط حياة مختلفاً تماماً.

ستاربكس هو إسقاط مصغّرٌ للحياة التي نعيشها، فكل شيء فيه سريع، حتى تحضير القهوة الذي يُفترضُ أن يتمّ بتُؤدةٍ، يتعمّد موظفو المقهى أن يستعجلوه أمامك، ثم عليك أن تحمل قهوتك وتمضي دون أن تتحدث إلى أحدهم، حتى لا تُربكَ تدفّق الزبائن وتخرق تقاليد المكان. يمنحكُ ستاربكس خياراتٍ كثيرة، ولكنها قد لا تكون حقيقية، وهذا ما أوردتهُ في موضوع (هل خياراتنا حقيقية؟) حيث افترضتُ أن الخيارات الحقيقية هي الخيارات التي نقوم بها بأنفسنا، لأنها تعكس رغباتنا وطموحاتنا،

والخيارات الكاذبة هي تلك التي يقوم بها الآخرون بالنيابة عنا. إلا أننا نستمتع، ودون أن نشعر أحياناً، بكثير من الخيارات الزائفة، وخصوصاً تلك التي تتعلّق بالقهوة وطريقة ارتشافها.

أما بيكاسو فإنه قد فُرِضَ علينا بفنّه الغريب، فلا يمكنك أن تتحدث عنه دون أن تُبدي احترامك لأعماله، لا لأنك تحبها، ولكن لأنها من إنتاج أحد أشهر فناني القرن العشرين كما يقول الخبراء الذين لم نعرف أسماءهم يوما، وعليك إذا وقفتَ أمام إحدى لوحاته أن تقف بصمت وتُبدي إعجابك، فالامتعاضُ مرفوضٌ جملة وتفصيلاً، لأنك بذلك تكون غير متذوق للفن وغير آبه بالإبداع، وهو ما يقع تحت طائلة العبودية الجديدة، مثلما ورد في موضوع (العبيد الجدد) حيث يستعبد الإنسان نفسه بنفسه، ولا ينفكّ يتلذذ بتلك العبودية حتى في أحلك ساعاتها المظلمة، لأنه يظنّ بأن انغماسه في الظلام سيؤدي به إلى النور لا محالة، وخصوصاً إذا كانت عبودية ملوّنة كإحدى لوحات بيكاسو المُعقّدة.

وجه الشبه بين بيكاسو وستاربكس أنهما مثالٌ للا مبالاة، فهما أقرب إلى الفوضى المنظّمة، كما أنهما يُعطيان قيمة لأشياء قد لا تستحق قيمة، ويفرضان علينا، بجمال وهدوء، اعتناق مبادئ جديدة ثم تصديقها على مضض، حتى ونحن نتجرّعها بمرارة شديدة.. إلا أننا رغم كل ذلك، نملك خيار اعتناقهما أو التملّص منهما، ولكننا لا نُدرِكُ هذه الحقيقة.

الصفحات القادمة تقولُ ما لَم يُقَل بعد، عن الإنسان والحياة، عمّا يجمعهما ويفرّقهما.. إنها تحكي لنا، وتحكي عنّا.

ياسر حارب

دبي

فبراير 2011

أنا أتألّم إذاً أنا موجود

يتألّم الإنسان كل يوم، ولا تكاد تخلو ساعة من يومه دون أن تتجلى فيها جدلية الألم والراحة، التي تُلازم ابن آدم منذ لحظة ولادته حتى لحظة رحيله. فمعظمنا يخشى الألم ويرغب في الراحة وهو يعلم أنها مؤقتة، أوليس الألم مؤقتاً أيضاً؟ كلما حكى لي أحدهم عن صراعاته في عمله، أُدرِكُ أن الألم الذي تجلبه لنا تلك الصراعات، هو من صنعنا نحن لا من صنع الحياة.

فالصراع حكاية، ولكل حكاية نهاية، والعاقل هو الذي يعرف كيف يلمّ شتات نفسه خلال الأزمات، ويخرج منها بأقل الخسائر. عندما يخرج أحدنا من مشكلة ما وينظر وراءه، يُدرك مدى جهله لأنه عذّب نفسه كثيراً وأشقاها خلال تلك المرحلة، رغم علمه بأن المشكلة ستنتهي حتماً. يقول الدلاي لاما: «لا تقلق، فإن لكل مشكلة طريقين، الأول أن يكون لها حل، ولذلك لا تقلق، والثاني ألا يكون لها حل، فلماذا تقلق؟».

إن الألم هو مرحلة تمرُّ في حياة الإنسان، مثل المراحل الدراسية، ولكنها مرحلة متكررة، تكون غالباً من اختيار الإنسان

نفسه. ولكن المشكلة ليست في الألم ذاته، بل في كيفية التعامل معه، فالإنسان هو الذي يقرر إلى أي مدى يسمح للألم بأن يتمكن من نفسه أو من جسده.

الألم هو حالة ذهنية تصل فيها النفس إلى الحضيض، حتى يشعر الإنسان بأنه منسحقٌ تحت كومة أفكار ومشاعر سلبية تكاد تنفجر في رأسه. ولكي يتخلص المرء من تلك الحالة، فإنه يحتاج إلى أن يحلم... نعم، يحلم بمرحلة ما بعد الألم، حتى يستشعر الراحة التي ستحلّ عليه عند بلوغه تلك المرحلة. أُصبتُ مرّة بمغص حادّ فاسودّت الدنيا في عيني، وبعد أن رحل، شعرت بأنني قد عدت إلى الحياة، وفي اليوم التالي باغتني نفس المغص، وعندما تذكرت كيف سيكون شعوري بعده، بدأ الألم بالانحسار تدريجياً. قد لا يفارقك الألم، ولكنك تستطيع أن تفارقه.

إن كثرة تفكيرنا في آلامنا تحيلها إلى واقع حتى وإن كانت وهماً، وتضخّمها في أعيننا رغم ضآلتها أحياناً. ألم تتساءل لماذا لا تموت القردة المصابة بمرض الإيدز بسرعة؟ الجواب هو؛ لأنها لا تعلم بأنها مريضة. إن من يستحوذ الألم على حياته يفقد الأمل، ومن فقد الأمل مات مرتين. يقول الطُغرائي:

أُعلِّل النفس بالآمال أَرقُبها

ما أضْيَقَ العيش لولا فُسحة الأَمَلِ

الألم أستاذ فَذّ، يخبرنا عن أنفسنا ويكشف لنا ما بَطَن من أسرارها وما احتجب منها عنا. والألم يقرّبنا من معرفة الحقيقة، فمعظم الحقائق مؤلمة، إلا أننا نسعى للوصول إليها. الألم مدرسة العظماء، وهو الطريق المؤدية إلى الحكمة، وكلما زادت الطرقات وعورة، كلما كانت نهايتها أجمل.

لا يهمّ الطريق الذي تسلكه في رحلة الألم، ولكن الأهم هي الطريقة التي تتعامل بها معه. فهناك من يتجاهل الألم وهناك من يُنكره... أن تتجاهل الألم يعني أنك مدركٌ له إلا أنك غير آبه به، تُواجهه بالمضي عنه وبعدم التوقف عنده، أما إنكاره فيعني أنك خائف منه، والخوف من الشيء يؤدي إلى تعظيمه.

الانشغال بالألم هو توقّفٌ مؤقّتٌ عن الحياة، وهو إقحامٌ ساذج للعجز في عقولنا، والعظماء فقط من يرون في الألم أكبر دافع للمقاومة، فالجروح الغائرة تجعل الفرسان أكثر بسالة، ولو لم يوجد الألم لما كانت للنصر قيمة.

الألم لا يدمّر الإنسان، بل الإنسان هو الذي يدمّر نفسه عندما يختار الخضوع للألم، وأبشع صورة لذلك الخضوع، هي كثرة رثاء الإنسان لحاله وكثرة حديثه عن آلامه. الفاشلون يتحدثون عن آلامهم، والناجحون يتحدثون عن آمالهم. الناجحون يرون في الألم نعمة عظيمة، فكلما تألّموا أكثر كلما تحكموا في حياتهم أكثر، وعندما يتغلب الإنسان على آلامه يفهم المغزى من

حياته. يتألم الإنسان عندما يختزل الحياة بكل معانيها وحكاياتها وأيامها، في ألم عضوي أو نفسي، وينسى أن الحياة أكبر من الألم بكثير، بشرط أن يفهمها جيداً.

تُعتبر الوحدة أشدّ أنواع الألم قسوة، ولذلك يسعى الإنسان إلى إحاطة نفسه بأناس يحبهم ويحبونه، فصدور الأحباب خير دروع ضد الصدمات. الحب أفضل رُقْيَةٍ ضد الألم، والحُزنُ مع الجماعة فرحة.

عندما تخلو النفس من أهداف، فإنها تكون أكثر عرضة للآلام، فالأهداف السامية تشغل الإنسان بعظمتها عن كل ما دونها، وكلّما عَلَت همّة الإنسان، كلّما تضاءلت الآلام في عينيه.

الألم يجعلنا نحلم دائماً بغدٍ أفضل، ولولا الألم لتشابهت أيامنا، وعندما تتشابه أيامك فاعلم أنها قد قاربت على الانتهاء، والحياة دون أحلام هي حياة مؤلمة بلا شك. لو لم يوجد الألم لما وُجد الصبر، ولو لم يوجد الصبر لما وُجدت الفضيلة.

إن الذي يتألم كثيراً يرحَمُ أكثر. الألم أفضل محفّز على الاستمرار، إنه ليس العصا وليس الجزرة أيضاً، بل هو الرغبة في التخلص منهما. لكي تتغلب على الألم، عليك أن تختار ذكرياتك ولا تجعلها تختارك، فذكرياتنا تصنع آلامنا وأفراحنا. قد لا نستطيع التغلب على الذكريات، لكننا نستطيع التغلب على الآلام.

النَمَطِيّون

في بعض المجتمعات العربية، يَندُر أن تجد من يقول لك «أنت ناجح»، ولكن من السهل أن تجد من يقول «أنت مخطئ»، وهذا أحد أسباب التراجع العربي. ولذلك لا يشعر غالبية المبدعين في تلك المجتمعات بالأمان المعرفي، ويسعون إلى استرضاء طائفة فكرية معيّنة، حتى يجدوا لديها تشجيعاً أياً كانت صيغته. فيتحول المبدعون في هذه الحال إلى نسخ مكررة، تُردد نفس الشعارات، وتستشهد بنفس المقولات التي يتداولها مَن حولهم. لا أؤمن بالأمثال كثيراً، وقلّما أستخدمها في حياتي، فالأمثال تجارب إنسانية لبشر مروا قبلنا، قد يخطئون وقد يصيبون، وكلامهم ليس من التنزيل حتى يُنزَّه عن الخطأ. إن كثرة جريان (بعض) الأمثال على ألسنة الناس، يبعث في المجتمع بلادة فكرية، وقناعات زائفة، تعطّل الإبداع، وتئده قبل بلوغه سن الرشد.

هؤلاء الذين يردِّدون ما يسمعون دون أن يعوا حقيقة ما يقولون، هم النّمطيون، فالنمطي يحب تكرار الأقوال، والأفعال، والهوايات، حتى قائمة طعامه لا تتغير إلا نادراً. لا تحب هذه

الفئة النّقد بكل أنواعه، بل تنظر إلى الأفكار نظرة المرتاب، وترمي أصحابها إما بالخروج عن الأعراف، أو بمحاولة تضييع أوقات الناس.

النمطيون يكررون أنفسهم كثيراً، يبدأون من نقطة ما، وينتهون عند نفس النقطة، ثم يشعرون بالسعادة لأنهم يعتقدون أن سعيهم قد قادهم إلى نتيجة. والنمطيون لا يملّون، لأنهم لا يعرفون غير الملل عملاً، ويعتقدون أن السلام كامن في البساطة، ولا يدرون بأنهم يخلطون بين البساطة وبين السطحية. البساطة أن تقوم بعمل عظيم دون تكلّف، والسطحية ألا تقوم بأي عمل.

يمكنك أن ترى نمطية المجتمع عندما تذهب إلى السوق. حدّق جيداً وسترى نفس الأشخاص يجلسون في نفس المقهى، ويقومون بنفس الإيماءات، وينظرون إلى نفس الزوار كل أسبوع. الشيء الوحيد الذي يتغير في هؤلاء، هو نوع الملابس والمجوهرات التي يلبسونها، وحتى هذه تكون نمطية في أغلب الأحيان.

يمكنك معرفة الإنسان النمطي عندما يسألك «كيف الحال؟» أكثر من مرة، ثم لا يملّ من سماع نفس الإجابة. فالنمطي لا يبحث عن حلول، وإن بحث فإنه يصل إلى نفس النتائج، لأنه يطرح نفس الأسئلة. عندما ينتشر وباء النمطية في مجتمع ما، تسوده البلادة، ويغزوه الجهل. النمطي يقرأ ما أُريدَ له، لا ما

يُريد، ويُناقش مثلما تعلّم في المدرسة وفي الجامعة، بصمت مُجحف، يُصاحبه رضى مزيّفٌ عن الذات.

النمطيون لا يحبون أصحاب الأقلام، ولا أصحاب الفُرش الملوّنة، فالألوان عندهم لونان؛ أبيضٌ وأسود، لا يؤمنون بمزجهما حتى لا تكثر المساحات الرمادية في حياتهم، فاللون الرمادي بالنسبة لهم هو خروج عن المألوف، وهو حيرة تشتت تركيزهم المنصَبّ على الكسل. يتحول القلمُ في يد النمطي إلى بندقية ضد كل من يخالفه الرأي، فالبندقية أكثر نفعاً كما أخبروه، لا كما قرأ. يخوض النمطي نفس المعارك، ليحصد نفس الغنائم. إن من يحمل قلماً عليه ألا يخشى ممن يحمل بندقية، فالأقلام لا تصدأ، والبنادِقُ لا تُوَرَّث.

يؤمن النمطي بأن الحياة وُضعت لفتنة الإنسان، ولا يدري أن الإنسان هو الذي يفتن الحياة، بِنِيّته، وبعمله أيضاً. يسعى النمطيون إلى اكتشاف حياة ما بعد الموت، وينسون أن يكتشفوا حياة ما قبل الموت. هؤلاء لا يخشون الجهل، بل يخشون المعرفة، ولذلك لا يعرفون كيف يتعاملون مع أصحابها، فيلجأون إلى العنف اللفظي أو الجسدي.

إن وأد الأفكار واغتيال الآراء وإخماد الحوارات البنّاءة، هي أفعال نمطية يُتنطع بها بحجة الحفاظ على عقول الناس، ولكن العقول لم تُخلق لكي تُراعى مثلما تُرعى البهائم، بل خُلقت لكي

تنطلق وتفكّر وتضجّ فيها أصوات الأفكار المتعاركة. العقول ساحات حربٍ خصبة للأفكار، وكلّما تعاركت الأفكار في داخل الإنسان، كلما عَمّ السلام خارجه.

النمطيون لا يسألون الله إلا حُسن الخاتمة والنجاة من النار، وينسون أن يسألوه علماً وفهماً وعملاً وتطوراً، وبنية تحتية وتكنولوجيا حديثة، واستقراراً سياسياً واقتصاداً متيناً، فالموت عندهم راحة من كل هذا. النمطيون يبنون بيوتاً، ولكنهم لا يبنون مدينة، يزرعون شجرة ولا يزرعون حديقة. النمطيون لا يعلمون، ولا يريدون أن يعلموا، ويُحبّون أن يُصنّفوا ما يجهلونه تحت باب «عِلمٌ لا ينفع». النمطية داء حضاري، يورِث الدّعة، ويدعو إلى الاستسلام والتسليم. الاستسلام لا يحقق السلام، العمل الصادق وحده يمنح الإنسان سلاماً فوق الأرض وتحتها.

النمطية عبودية شفافة، لا يراها الإنسان إلا عندما يبدأ بالتلوين. لوّن حياتك، ولا تخشَ أن يُقال عنك مجنون، فذروة العقل الجنون. لوّن حتى يعرفك الناس، وحتى تعرف نفسك.

لماذا يكره الإنسان نفسه؟

«كَرِهتُ نفسي» أسمعُ هذا المصطلح كثيراً، وقد شعرت بتأثيره قبل مدة عندما عجزتُ عن أن أختلي بنفسي يوماً واحداً في الأسبوع. فمعظمنا يقضي وقته في مُربكات العمل حتى وهو في البيت. يحمل وظيفته في يده، وفي قلبه، ويَلهجُ بذِكرها لسانه طوال اليوم. يكره الإنسان نفسه لأنه لا يعرفها، ولا يهمّه أن يعرفها، فبينه وبينها قطيعة روحية فجّة، سببها أنّه يُعمِلُ نفسه ولا يَعمَلُ لها.

عندما أنظر إلى الناس من حولي، أجد أن الغالبية منهم متوترون طوال اليوم، وأراهم مستعجلين في كل شيء. في قيادة السيارة، وفي الأكل، وفي قراءة الجريدة. بل إن البعض منهم لا يستطيعون أن يُكملوا قراءة خبر أو مقال إلى نهايته، ناهيك عن عجزهم الوهمي عن قراءة كتاب، ولذلك يكرهون أنفسهم.

وإلى جانب التوتر، نشعر بأننا مقصّرون دائماً، ونسعى بلا هوادة في تحقيق أشياء نجهلها. سألتُ أحد هؤلاء المستعجلين يوماً: ما هدفك؟ ولماذا تعمل طوال اليوم؟ فأجاب: لكي أنجح

في حياتي. ثم سألته: ما هو النجاح؟ فقال: أن أحقق طموحي. فأردفتُ: وما هو طموحك؟ تردد قليلاً ثم قال بنبرة المحتار: أن أنجح. صديقي هذا يكره نفسه دون أن يشعر.

معظم هؤلاء المُرهَقين، المستعجلين، المندفعين، لا يحملون رسالة واضحة في حياتهم، ويسعون، على غير هدى، لكي يشعروا بأنهم أشخاص ناجحون. يمضون إلى غير وجهة، ولا يعرفون ماذا يُريدون من حياتهم، ولذلك يكرهون أنفسهم. ولكي تعرف إن كنتَ أحد هؤلاء الناس أم لا، فحاول أن تصف رسالتك في الحياة بكلمة واحدة فقط.

يمضي بعضنا على عجل، دون أن يدري لماذا، وحتى متى. حياتنا منسحقة تحت شعارات جوفاء، كالاجتهاد، والطموح، والقيادة، وغيرها من العناوين التي لا يدرك كثير منا ماهيّتها، ولا كيف يوظفها بالطريقة الصحيحة.

وفوق هذا السعي المُشتَّت، تزيد التكنولوجيا من شتاتنا الاجتماعي البليد الذي يُداهِمُنا ببطء، ثم يُقيم بين ظهرانينا إلى أجل غير مسمى. فالتكنولوجيا التي كان مفترضاً بها أن تختصر مشقات الحياة، تتحول أحياناً إلى آلة للعزلة الاجتماعية، ليس بين الأفراد فقط، ولكنها أصبحت تَحول بين المرء وبين نفسه. كم مرة سمعتَ من يقول: نسيتُ نفسي أمام الكمبيوتر؟ حيث ينشغل الإنسان في لذة التواصل المنقطع مع أشباح الناس

على الإنترنت، في عالمٍ يتحول الرحيل فيه إلى عادة اجتماعية، يُمارَسُ بابتذالٍ كل يوم. إن رحيل الإنسان عن نفسه، هو أقسى أنواع الرحيل.

لم نعد نعرف أنفسنا، ولسنا نعرف ما تحب وما تكره. تعيش النفس في داخل أحدنا غريبة عنه، وكأنها ضيف أسكنَه مُضيفُه في قبو مظلم، وما زال ينتظر الفرج. عندما ننشغل عن أنفسنا، فإننا نُلغي أهميتها في حياتنا، فينشأ صراع داخلي يؤدي إلى أمراض جسدية ونفسية، فالنفس تمرض مثلما يمرض الجسد، والنفس أيضاً كالطفل الذي يحتاج إلى اهتمام، ويحتاج إلى حب.

أتساءلُ، في خضمّ هذا التسارع المخيف، كيف لنا أن نفهم الحياة من حولنا؟ وكيف لنا أن نستوعب معانيها لكي نتمكن من المضي فيها؟ كيف نفهم الحياة ونحن نمرّ عليها كالراكبين في قطار سريع، يمرّون على حقول الزهور الملوّنة، فيرونها لوناً واحداً ولا يأبهون! عندها لا بد أن يكره الإنسان نفسه.

لكي لا تكره نفسك، عليك أن تبحث عنها، وتكتشفها، وتنمّيها، وتطورها، لتسمو بها. عليك أن تعرفها وتتصالح معها، حتى لا ينطبق عليك المثل القائل: الإنسان عدو ما يجهل. إن من يُعادي نفسه، يُعادي من حوله، ومن يُعادي من حوله يكره نفسه بلا شك.

النفس هي الوطن الذي نحمله معنا ولا يُغادرنا إلا عندما

نُغادره. النفس كائن آخر يسكننا، هي ليست نحن، ولكننا قد نكون هي. أتحدث مع نفسي كثيراً، وخصوصاً عندما أجلس وحيداً، ولا أخشى من أن يظنني الناس مجنوناً، فالمجنون هو الذي يعتقد أنه يستطيع أن يجلس وحيداً.

أحد أسباب قطيعتنا مع أنفسنا هو حبنا للسيطرة عليها واستعبادها، ولم نفكّر يوماً في مصادقتها. يحب الإنسان التحكم في كل شيء، ويُريد أن يُحدد مصيره، ومصائر من حوله، ويُسمي ذلك «قيادة» وأحياناً «طموح». القيادة الحقيقية هي أن تُعطي الناس الفرصة ليُحددوا مصائرهم، والطموح الحقيقي هو أن تمنحهم مساحة ليكونوا ما يُريدون، وعندما يُسلب الإنسان حُريّة الاختيار، فلا بد أن يكره نفسه.

هل جرّبت أن تقبل الحياة كما هي؟ وأن تتقبل من تحبّ كما هم، لا كما تهوى؟ الحب هو إحدى النسمات الوجودية التي تساعدنا على استرجاع إنسانيتنا، وتحررنا من كل سيطرة خارجية، وحب النفس هو أحد أطهر أنواع الحب. السيطرة تُفقِد الحياة عفويتها، وتجعل الناس يصطنعون حياتهم وآمالهم. حتى آلامهم تكون مصطنعة تحت السيطرة، وحينها يكره الإنسان نفسه.

جرّب أن تنسجم مع ما يحدث لك دون أن تفكر في ما هو أفضل منه، وستجد السعادة كامنة في الانسجام غير المشروط. دع عنك الخطط قليلاً، وانسَ المستقبل، وعِش تفاصيل الحاضر،

تذوقه، استنشق عبيره، واستمتع بمناظره، حتى وإن كانت بسيطة، ففي البساطة أحياناً سرّ السعادة. ليس بالضرورة أن تنظّم كل دقيقة في يومك، وليس من المهم في بعض الأيام أن تضع جدولاً قاسياً لأعمالك، وجرب أن تترك ليومك الخيار لتحديد أحداثه بنفسه، ثم استمتع بكل لحظات ذلك اليوم.

يُضحّي البعض بكل شيء، بصحته، وبأسرته، وبماله، وبجهده، ليُقال عنه: إنه صاحب همّة عظيمة. وينسى أن أصحاب الهمم العظيمة هم أصحاب النفوس العظيمة. لا تُحقّر نفسك، ولا تُهِنْها باسم التواضع، فكما تدينها تدينك. لا أؤمن بالمثل الذي يقول: من أحب نفسه، لم يحب أحداً. بل أعتقد أن من أحب نفسه أحب من حوله، ففاقد الشيء لا يعطيه.

لكي لا تكره نفسك. عليك أن تَفرَغ لها وتفهمها، ولكي تفهمها، دعها تُخطئ، وتلذذ بمسامحتها، ثم دعها تصيب، لتنعم بمكافأتها. إذا فرغت لنفسك فسوف تتمكن من إصلاحها، ومن أصلح نفسه، فكأنما أصلح الناس جميعاً.

هل خياراتنا حقيقية؟

جلس ووضع مجلّتين على الطاولة أمامه، وهاتف «بلاك بيري» وآخر «آي فون»، وفوق المجلتين وضع جهاز «آي باد»، ثم فتح كمبيوتره المحمول وبدأ بتصفح الإنترنت وهو يرتشف القهوة. كان يتنقل بين أجهزته الأربعة بسرعة، ثم يتصفح إحدى المجلتين على عجالة، ولا يبدو أنه استطاع أن يكمل قراءة مقال واحد منهما.

أسترِقُ النظر إلى شاشة كمبيوتره فأراه قد فتح عدداً لا يحصى من المواقع الإلكترونية، تتنوع بين الإخبارية وشبكات التواصل الاجتماعي واليوتيوب. وضع في إحدى أذنيه سماعة موصولة بالكمبيوتر. وفي الأذن الأخرى، سماعة موصولة بالآي فون، فبدا شكله وكأنّه نسخة حديثة من فرانكشتاين. وبعد أن انقضت ساعة كاملة، أطفأ كل شيء، وزفر زفير من أنهكه العمل، ثم حمل أدواته ومضى.

بدا ذلك الرجل مرتبكاً ومتردداً وهو ينتقل بين الخيارات المتنوعة أمامه، ويبدو أن رحلته الاستجمامية التي خطط

لقضائها في المقهى، قد تحولت إلى أرق آخر، شأنه في ذلك شأن كثير ممن لا يستطيعون العيش دون وجود خيارات لا نهائية في حياتهم، دون أن يعلموا بأنهم واقعون في مأزق براغماتي عميق.

إن كثرة الخيارات في حياتنا ليست ظاهرة صحية كما نعتقد أحياناً، فالخيارات المتعددة تفقدنا الانسجام مع الحياة، وتنزع منا قدرتنا على تذوق جمال الأشياء البسيطة التي بين أيدينا، وتحيل أنظارنا إلى ما لا نملكه، لتتحول حياتنا إلى رغبات، وتتحول إنسانيتنا إلى ماديات.

فكلما زادت خياراتنا، زادت حيرتنا، وتشتت أذهاننا، فنحن نجلس في المنزل وعقولنا مشغولة بالتفكير في العمل، أو في التخطيط لقضاء مشوار ما، أو في ما قاله الأستاذ في المحاضرة. نعيش وأجسادنا في مكان، وأرواحنا في مكان آخر، فأفكارنا مبعثرة، وأوقاتنا مسروقة في خضمّ هذه الخيارات اللامتناهية من الماديات، الضرورية والهامشية.

كثرة الخيارات في حياتنا تُنسينا الاستمتاع باللحظة الآنية التي تُعتبر اللحظة الحقيقية الوحيدة، وتلغي من قواميسنا كلمة «الآن» لتستبدلها بكلمات مثل «كان» أو «سوف». إن التركيز على ما بين أيدينا، وإن كان بسيطاً ومحدوداً، يوحّدنا مع الحياة ويُذيبها في صدورنا، فهو يحررنا من براثن الماضي، ويزيل عنا

قلق المستقبل، ويمنحنا المتعة الممتدة بامتداد ذلك التركيز، وهذه هي الخيارات الحقيقية.

الخيارات الحقيقية تحررنا من عبودية الموضة، وتعتق رقابنا من الأحجار الكريمة، وتفك أسر قلوبنا من كل ما يلمع حتى وإن كان ذهباً، وتعيدنا إلى الزمن الذي كان الشيء الواحد فيه يساوي كل الأشياء.

الخيارات الحقيقية هي الخيارات التي نقوم بها بأنفسنا، لأنها تعكس رغباتنا وطموحاتنا، والخيارات الكاذبة هي تلك التي يقوم بها الآخرون بالنيابة عنا. إن أسوأ سلب لحرية الإنسان لا يكمن بحبسه في السجن، ولكن في سلبه قدرته على الاختيار.

خيارتنا تصنعنا، تُقَولِبُنا، وترسم مجرى حياتنا. الخيارات الحقيقية لا تحتاج إلى وسائل وأدوات، بل تحتاج إلى قدرة على اتخاذ القرارات، وتحتاج إلى إدراكٍ عميق لأنفسنا، لمن نكون، ولماذا أصبحنا على ما نحن عليه، وماذا يمكننا أن نصير غداً.

فلكي تختار الخيار الحقيقي، عليك أن تعيد قراءة نفسك، وتكتشف ذاتك، وعليك أن تعرف من أنت، وما هي النواميس التي تدفعك إلى العمل، وما هي الأشياء التي تزجّ بك في دائرة الكسل.

يعرف معظم الناس الأدوية التي لا تناسبهم وتسبب لهم

التحسس الجلدي أو التلبّك المعوي، ولكن قليلون هم الذين يقضون وقتاً كافياً لاكتشاف ما يناسب أرواحهم، من أوقات، وأشكال، وألوان، وكلمات، وإيماءات، تدفعهم إلى الاختيار الصحيح. إن معرفة النفس فضيلة في حدّ ذاتها، تدلّنا إلى معرفة طريق الحياة الأنسب لها. ومعرفتنا بأنفسنا تصنع خياراتنا، وخياراتنا تصنع قدراتنا، وقدراتنا تصنع مستقبلنا.

لكي تدرك الخيارات الحقيقية، عليك أن تصغي كثيراً، ولكي تصغي كثيراً، عليك أن تصمت أكثر. فالخيارات تشكّل كل شيء فينا، حتى ماضينا، فعندما نختار العيش في الماضي، فإننا نرسم المستقبل على ملامحه، ليكون نسخة طبق الأصل منه. أن تكون حراً في اختياراتك يعني أن تؤمن بعقلك، وتستمع إلى الأصوات التي تضج بداخلك، تلك التي لن تستطيع كبتها أو التغاضي عنها، لأنها أصوات الحقيقة.

كثرة الخيارات في حياتنا تصيبنا باليأس، لأننا نعجز عن حيازتها كلها، ونادراً ما نحصل على أفضلها. والخوف من الاختيار هو يأس في حد ذاته، وهو تعطيل للقدرات التي نملكها، وإلغاء للاحتمالات المشرقة التي قد تمر في طريقنا يوماً.

اليائس هو الشخص الذي يطفئ المصباح ثم يشكو إضاعته الطريق. لا تُطفئ المصباح حتى وإن كان زيته على وشك النفاد، فمعظم الاستدلالات تأتي قبل موت الأمل بلحظات.

كثرة الخيارات تحجبنا عن رؤية الحقيقة المجرّدة، تلك التي يصلها الإنسان بإنجازاته لا بنوع ثيابه. كثرة الخيارات هي عجز عن الطموح وعن التخطيط، فعندما يختار أحدنا خياراً حقيقياً، كأن يكون مسرحياً مميزاً، يأتي له أحد الغارقين في خيارات الحياة اللانهائية، ليصرخ في وجهه، بصمت، ويقول له: «إن سيارتي أهم من كل مسرحياتك»، ثم يصفّق له المجتمع، لأنه يرى الحياة مثله، من خلال خياراته لا من خلال إنجازاته.

الحقيقة خيار واحد، ولذلك يصعب على المرء الحصول عليها، فهي لا توضع على الرفوف مع باقي البضائع، ولا تخضع للمفاضلة أو للمقايضة. الحقيقة خيار وجودي لا يُباع ولا يُشترى، ولكن الخيار ليس بالضرورة أن يكون حقيقة، وخصوصاً عندما يكون في مجتمع لا يقرأ. نحن نختار الحقيقة، عندما نشعر بالحاجة إليها فقط.

لماذا يرحلون إلى مكة؟

يدخلون إلى الطائرة تباعاً وهم ينظرون في وجوه الآخرين، بعضهم سعداء، وبعضهم لا تبدو عليهم أية ملامح، ومنهم من يشعر بتعب الحج قبل صعودهم إلى الطائرة، حيث يفكّرون في كل تفاصيله وكل المشقة التي سيتكبدونها أثناء تأديتهم لمناسكه، ثم يتمتمون بإرهاصاته حتى وهم يشربون كوب قهوة نصف ساخن في أحد مقاهي المطار.

أتفرّس في وجوه الراكبين وقد اصطفوا خلف بعضهم دون أن يبحثوا عن أماكن جلوسهم، إلا أنهم يبحثون عن شيء ما، عن الطمأنينة ربما، أو عن الأمان الروحي الذي يهبط من السماء على قلوبهم كلما تذكروا أنهم سينظرون إلى الكعبة اليوم. بعض الذين لم يذهبوا إلى الحج من قبل يتلهفون، بقلق، للوصول إلى مكة، فهي هدفهم الرئيسي، وأولئك الذين زاروها من قبل يطمحون للوصول إلى أبعد من مكّة.

مكة بالنسبة للفريقين هي نقطة بداية جديدة، نقطة بيضاء في صفحة تزداد بياضاً كلما اقتربوا منها، يخط فيها الحاج

قدره من الآن وصاعداً، ويزيّن حواشيها بما يشاء من الأمنيات السعيدة، ويكتب أسماء أطفاله الذين لم يولدوا بعد. في مكّة تتوحد أمنيات الناس وتمتزج آمالهم، وما أن تقع أنظارهم على الكعبة حتى يجأرون بصوت مُذْنِبٍ واحد طالبين الصفح والرحمة لهم كلّهم دون تفريق، فليس هناك رحمة ناقصة.

بعض الحجاج كانوا صغاراً في السن، شباناً وشابات لم يتجاوزوا الحلم بكثير، ولا أدري عن أية ذنوب سيتوب هؤلاء الذين يجرّ أحدهم أمّه خلفه، وتدفع إحداهن أباها العجوز أمامها أثناء طلوعنا على أحد الجسور راجلين.

محظوظون هؤلاء الصغار لأنهم سيشهدون معجزتين، معجزة الحج ومعجزة برّ الوالدين. تسيطر على هؤلاء الفتية رغبة جامحة في الانتهاء من الطواف قبل الآخرين، علّهم يحظون بفرصة للجلوس على دكة منسية في الحرم، يراقبون منها حركة الكون المصغّر التي تجلّت حول الكعبة.

تبدو الكعبة عن قرب وكأنها أم حنون، تقرأ على أبنائها الذين وفدوا إليها من كل فجّ عميق آيات من القرآن الكريم كلّ ليلة، لترقيهم وتنقيهم، وكلما بكى أحدهم في حضنها، مسحَت بيديها الحانيتين على رأسه حتى ينام على صدرها، يستيقظ كما ولدتهُ أمه.

كلما اقتربتُ من أحد الحجاج في الطواف شممت رائحة

أمنياته التي تحلّق فوق رأسه، فالذين يتمنون الموت في مكانهم ويضرعون إلى الله لكي يقبض أرواحهم في الطواف، تنبعث منهم روائح كريهة كرائحة ميتين تُركوا في صحراء قاحلة منذ زمن، وأولئك الذين يدعون: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» تفوح منهم رائحة مسك تسقط على أنفاسي كوابل عظيم، وإن لم يكن وابل فطلٌ من الأمنيات البسيطة.

كنت أغضب في الطواف كلّما لطمني أحدهم دون قصد، وكلما دفعني آخر تساءلت في نفسي كيف سأستشعر روحانيات المكان. وبعد تأمل بسيط، أدركت أن الروحانيات لا تهبط إلا على من أدرك سرّ الكعبة، وهو الانسجام مع حركة البشر وحركة الأكوان الممتدة على صحنها الأبيض. أغمضتُ عيني وتركت أمواج البشر تحملني إلى غير وجهة، وبعد أن تركتُ العنان للمجرّة البشرية التي غصت فيها لكي تفعل بي ما تشاء، شعرت بأنني مستلقٍ على صفحة بحيرة هادئة، وإذا بأمنياتي تغتال كل الروائح الأخرى، وتحلّق بي في أكوانٍ وجودية فتحتُ لها قلبي ورددتُ: «الله الله الله...» دون توقف، فأحسستُ بأنني في بيته الحرام حقاً.

إذا أردتَ أن تجد ذاتك فابحث عنها في وجوه الحجاج، فكل الوجوه تحمل نفس الهموم ونفس التاريخ الذي تتغير أحداثه مع انتقال الحجاج بين المشاعر المقدسة. في الحج، توقن بأن لجميع

البشر قصة واحدة، مكتوبة بلغات مختلفة، تبدأ بالخطيئة، ثم تشرع في رحلة الإيمان والبحث عن الذات. من أراد أن يجد ذاته فليبحث عن الله، فروح الإنسان هي جزء من روحه تعالى، ألم يقل «ونفخنا فيه من روحنا»؟ ومن يلحّ في طلب الله فإنه سيجد ذاته بالتأكيد، وليس شرطاً أن يجدها في مكّة، فالله في كل مكان.

الحج رحلة محفوفة بالتعب والترقّب، تبدأُ بالأمل وتنتهي باليقين والشك. اليقين بروعة الإيمان، والشك في أهمية كل الماديات في حياتنا.

عندما لبستُ الإحرام أحسست بأنني قد عدتُ كيوم ولدتني أمي، طفلاً مجرداً من كل شيء إلا من الله. ثم منحني ذلك الإحرام أبدية روحية لا تفنى معها السعادة ولا تزول، فكلّما تحسست جسدي العاري تحت ذلك الرداء الأبيض البسيط، أيقنتُ بأنني لن أخرق الأرض ولن أبلغ الجبال طولاً.

الوقوف بعرفة هو جلوس وصمت، جلوس عن الفتنة، وصمت عن اللغط، وهو اختلاء مع الذكريات بمختلف أنواعها، المكتملة والناقصة. لا شيء أقسى من ذكرى لم تكتمل، ولذلك يلحّ الواقفون بعرفة بالدعاء لمسح تلك الذكريات من صحائفهم الممتلئة بها. في ذلك الجلوس الصامت، يشعر الإنسان بالرضا لكونه مذنباً، فلولا الذنوب لما استشعر الإنسان لذّة المغفرة.

إن ذنوب الإنسان تفرّق بينه وبين الملائكة، وكم هو جميل أن يستشعر الإنسان عِظَمَ كونه ابن من عُلّمَ الأسماء كلها، وابن الذي من أجله خُلِقَ الكون. يقول ابن عربي في تفسير قوله تعالى «سنفرُغُ لكم أيها الثقلان»، هو يفرغُ لنا منا لأنا المقصودون من العالم لا غير، فنحن روح العالم. حقاً نحن روحُ العالم التي تعصي ثم تتوب، وبذلك تكتمل إنسانيتنا البسيطة.

رأيتُ الناس تزحف، يوم رمي الجمرات، كأنها سيلٌ نقي نقي، يبحث عن الراحة في وسط الضجيج، وينشدُ البناء في وسط الدمار. يرحلُ هؤلاء إلى مكّة ليتوبوا عما مضى، أما أنا، فرحلتُ لأتوب عمّا هو آت.

النور والمطر

تنساب على المسرح كورقة خريف تعوم على صفحة بحيرة هادئة، تتقدم في تناغم وانسجام مع كل شيء من حولها، ولا يبدو على وجهها إلا براءة البدايات، وما إن تبدأ بالغناء حتى يقف الجميع مصفقاً لها، فتحجب أيديهم ضآلة حجمها عن الكاميرات. تستمرُّ نجمة «السوبرانو» ذات السنوات العشر، وهي تصدح بصوتها المُذْهِل في برنامج «أميركا لديها مواهب»، دون أن تعاني من رُهاب المسرح، ودون أن تغادر البسمة وجهها الضحوك.

جاكي إيفانكو، هي إحدى أفضل المواهب الغنائية في مجال الأوبرا في العالم، ليس لسنّها الصغير فقط، ولكن لصوتها الذي أبهرت به كل من سمعه، وعلى الرغم من أنها لم تفُز بالجائزة الكبرى في البرنامج، إلا أنها أصبحت نجمة عالمية منذ أول ظهور لها، فانهالت عليها عروض تجارية وإعلامية من كل مكان، واستضافها «جاي لينو» في برنامجه المسائي، وأجلسها أمامه على (نفس) الكرسي الذي جلس عليه باراك أوباما.

قد نختلف وقد نتفق مع المواهب التي تظهر على هذا

البرنامج الذي وصلت شهرته الآفاق، إلا أننا نتفق، شئنا أم أبينا، مع ثقافة احتضان المواهب وتشجيعها على الإبداع، التي يتميز بها المجتمع الأميركي على وجه الخصوص.

ففي ذلك المجتمع المتنوع، تُعتبر الموهبة إحدى بديهات الحياة فيه، فهو مجتمع يدرك أفراده وقادته أن وجود المبدعين وانتشارهم في مختلف المجالات هو تعضيد لأسسه وتقوية لركائزه الحضارية، لذلك تتميز ثقافة المجتمع الأميركي وتركيبته الاقتصادية والاجتماعية بأنها قائمة على صناعة الإبداع، فتجد معظم أنشطة المؤسسات والجمعيات والجامعات وشركات التكنولوجيا وكل شيء هناك يدور في فلك الإبداع، وتجد المستثمر وأستاذ الجامعة ومدير الشركة، كلهم يبحثون عن المبدعين ويقتنصونهم.

إن المجتمعات التي تتعامل مع الإبداع كقضية رئيسية ومطلب حيوي هي المجتمعات التي تَزِنُ كل شيء بالمعرفة، فالجهل والإحباط صِنوان يعزّز كل منهما الآخر، كما هي حال بعض مجتمعات العالم الثالث التي تعتبر الإبداع مضيعة للوقت أحياناً، أو أمراً مُحرّماً في أحيانٍ أخرى.

فعندما يحاول أحد أفراد هذه المجتمعات «الخروج عن المألوف»، وهو اصطلاح للإبداع لدى البعض، والقيام بعمل متميز، فإنه قد لا يجد البيئة التي تحتضن هذا الإبداع، وقد

يجد توبيخاً وتحبيطاً ممن يحيطون به، وإن حاول الاستمرار في تنمية موهبته وصقلها فإنه قد لا يجد معهداً أو مدرّباً يعينه عليها، فيضطر إلى التخلي عن حياته الحقيقية، ويَلزم الخمول طوال الوقت، فتصبح حينها أيامه كلّها متشابهة.

إن ثقافة التحطيم والإحباط التي تعاني منها بعض مجتمعاتنا مصدرها الجهل، ولا أقصد بالجهل هنا المعنى المقابل للمعرفة فقط، ولكن الجهل بأهمية المبدعين ودور الموهوبين في صناعة تنمية حضارية لأي مجتمع. فلا يكاد يظهر أحد المبدعين على التلفاز حتى تتلقّفه ألسنة الحاقدين وضعاف العُقول الذين لا تتسع مداركهم الضيقة لاستيعابه، ولذلك فإنهم يريدون لكل الناس أن يبقوا في نفس مستوى الجهل الذي ترتع فيه عقولهم حتى يشعروا بالطمأنينة.

هؤلاء لا يبحثون إلا عن الأخطاء، ولا يقفون إلا على مناطق التقصير والثغرات التي لا تكاد تُذْكَر لدى المبدعين والموهوبين، ليكيلوا عليهم سياط نقدهم اللاذعة التي لا تصيب الآراء أو الأعمال كما هو معروف عن النقد البناء، ولكنها تصيب الأشخاص أنفسهم مسببة لهم عاهات نفسية وفكرية.

إن جاكي إيفانكو مجرّد مثال لأفراد نشأوا في بيئة منحتهم الفرصة للتعبير عن أنفسهم، دون تجاهل أو إهانات، ودون تحطيم للأمنيات، فكم مرة رأينا في تلك المجتمعات أُمّاً جالسة

على ركبتيها لكي تكون في مستوى طفلها، فتنظر في عينيه وتصغي له باهتمام وهو يحدّثها؟ ولكنّ شتّان أيضاً بين برامج جادّة في البحث عن الإبداع، وبين برامج لا تعدو كونها تسلية مبتذلة وبذيئة تبثّها بعض قنواتنا العربية.

إن أكبر مقيّد للحريات الإنسانية وللإبداع الفكري هي المجتمعات الرّجعية والمتعصبة، ففي تلك المجتمعات، يتردد المبدع ألف مرة قبل إظهار موهبته خشية من غضب المجتمع ومن مخالفة أعرافه وقوانينه التي لا تمتّ بعضها للحضارة بصلة، ليتحول الإنسان من مخلوق حر مبدع، إلى عبد للمجتمع، متّبع لتعاليمه لا مبتدع لمهاراته.

لا يفتقد بعض شبابنا ومبدعينا إلى القُدُرات والمواهب، ولكنهم يفتقدون إلى الثقة التي سلبتها منهم بيئتهم المثبطة للعزائم، فقديماً قيل: «المواهب أشبه بالزهور، تحتاج إلى النسمة والشمس لتزدهر وتنمو، ولكنها تموت في الحجرات المظلمة».

المجتمعات الحية والحضارية هي تلك التي تُمدّ المواهب بالثقة وتمنحها الفرصة لكي تحقق ذاتها، وهي التي توجد الجوائز والبرامج والمشاريع المحفّزة، في المدرسة وفي البيت وفي الجامعة وفي العمل، فلا يضطر الموهوب للانتظار حتى يُرَدّ إلى أرذل العمر لكي يحصل على فرصته، وليس عليه أن يموت لكي يحتفي به الناس وتُقدّر موهبته.

المبدعون لا يُبهروننا فقط، ولكنهم يمنحوننا الأمل، ويُجددون الطاقات المكبوتة بداخلنا، فهُم الشموع التي تُبدِّد الظلام ولا تلعنه. إنهم كقوس قزح الذي تتلألأ ألوانه عندما يتّحد النور مع المطر، فالنور هو المجتمع، والمطر هو الحُريّة، والمبدع الحقيقي هو الذي لا يعتريه الخوف أو التردد، فأسوأ أنواع الخوف هو خوف الإنسان من ذاته.

الحبُّ والهدية

يهتم بعض الناس بانتقاء الهدايا التي يقدّمونها لأعزائهم، وهو تقليد تعارفت عليه البشرية منذ القِدَم. يفرح هؤلاء عندما يُعطون، ويشعرون بأنهم في الحقيقة قد أخذوا بهذا العطاء.

فعندما تُهدي شخصاً هدية ما فإنك تقول له: «لقد تذكرتك... إنني أهتم بك... إنني أحبك» هذا باختصار ما تنطق به الهدية عندما تتفتح أمام متلقيها، كزهرة لامست يدُ الربيع أوراقَها الندية فانفرجت عن وجه بشوش، وما أن تتفلّت الخيوط التي تحتضن الهدية حتى يمتلأ المكان برائحة المُرسِل، وتطوف كلماته التي نُقِشَت، شفاهة، على وجه الهدية وزواياها.

إن أجمل هدية هي تلك التي تأتي دون مناسبة، لأنها بذلك تكون أصدق، وتكون جزءاً من ذات المُعطي، تحمل صدقاً وحميمية أبدية، وكما قال جبران: «لا قيمة لعطائك إن لم يكن جزءاً من ذاتك».

الهدية هي تجسيد للحب، وهي أبلغ من كل الكلمات التي يمكن أن نتفوّه بها لنعبر عن حبنا للآخرين. فالحب، على الرغم

من جماله وحاجتنا إليه، يبقى صعب التعريف، فهو وجود غير الوجود، لا يمكن تأطيره، مثل الفرح والحزن. فان تُؤَطّرَ الشيء يعني أن تتعرف عليه بإحدى حواسك، وأي حاسة يمكنها أن تتعرف على الحب! فلا يمكننا أن نراه أو نسمعه أو نشمّه أو نلمسه... ولكننا نستطيع أن نشعر به.

شيئان يصعب تعريفهما، اللّحن والرائحة. جرّب مثلاً أن تبحث عن موسيقى سمعتها ولكنك لا تعرف اسمها أو اسم ملّحنها، ماذا ستقول للبائع عندما تسأله عنها؟ وحاول أن تطلب من بائع العطور أن يعطيك عطراً شممته مرة ولكنك لا تعرف اسمه أو شكله، كيف ستشرح له ذلك؟

هذه هي جدلية الحب، يختفي عندما نحاول تأطيره، ويظهر عندما نعجز عن إيجاده، إن الموسيقى والعطر، على رغم سرياليّتهما، إلا أنهما يجسّدان الحب، ويعرّفانه، ويمنحانه شكلاً وملامحا.

عندما يصبح الحب أرثودوكسياً فإنه يُحال إلى التقاعد، ويحدث ذلك عندما يبقى رهين بوتقته التقليدية، كالجنس، والرسائل، والكلام المنمّق وغيرها من ممارسات يؤدّيها البشر دون أن يشعروا بأنهم ممثلون في مسرحية مملّة، لا تثير حماس الجمهور حتى يخرج أحد أبطالها عن النصّ، عندها تتحول المسرحية إلى واقع جميل.

سألني أحدهم يوماً: كيف يتجدد الحب؟ فقلت له: بالمفاجأة وبالهدية. فالمفاجأة بداية، وكم يهوى الإنسان البدايات لأنها تكون خالصة وصادقة ولا تدوم، فما أن تبدأ حتى تنقضي، وما أن تقف حتى تمضي، فالبقاء مملٌ ومضنٍ أحياناً، يقول الشافعي:

إنّـي رأيـتُ وقـوفَ الـمـاء يُـفـسِـدُهُ

إن ساحَ طـابَ وإن لـم يـجـرِ لـم يـطِـبِ

أما الهدية فإنها تذكار قال عنه جبران إنّه شكل من أشكال اللقاء. والهدية أيضاً تَذَكُّرٌ يُذْكي المشاعر ويُبْقِي جذوتها متلألئة كوجوه المتحابّين عندما يرونها. إن فرحة العطاء أصدق من فرحة الأخذ، فعندما يُعطي المحب فإنه يزرع الحَبّ ليحصد الحُب، وعندما يُعطي المحب فإنه في الحقيقة يأخذ. تذكّر قليلاً، كم شخصاً أعطيته فأحبّك؟ وإذا قارنت قيمة عطائك بقيمة الحب الذي حصلت عليه، فستجد بأن الحب يفوق كل عطاء، لأنه هدية من هدايا السماء.

كلّما تلقيتُ هدية، أي هدية، أشعر بأن جميع معاني الحب، وجميع قصائد الحب، وجميع رسائل الحب، قد اختُزِلَت فيها. الهدية ترياق ضد نوازعنا الليلية، ومشكاة تضيء معانيها الجزء المظلم من نفوسنا، وعِطْرٌ تنتشي بعبقه مشاعرنا وتعود هي المسيطرة، فعندما تطغى الرغبات على المشاعر يموت الحب، ولا يعود له ذكر في دواوين العاشقين.

إن الحب هو أقوى دافع للإبداع، وانظر إلى الشعراء هل كان غير الحب دافعاً لشعرهم؟ إن الهدية إذا وافقت هوى المُهدى إليه وحاجته أصبحت إحساناً، وعظُمت مكانتها لدى المتلقّي حتى تفوق كل أمنياته. وقديماً قال الشاعر البستي:

أحسِن إلى الناسِ تستعبِد قلوبَهُمُ

فطالما استعبد الإنسانَ إحْسانُ

يقول الصينيون: «مثلما يعود النهر إلى البحر، يعود إحسان الإنسان إليه» ولا أدري أيهما أفضل، النهر أم البحر؟

إن من يُحب يُهدي، ومن يُهدي يحب، وخير هدية هو الحب ذاته، فهو البقاء بعد الرحيل، وهو الحياة بعد الموت، وهو الكلمة التي لا تحتاج إلى قاموس. لا شيء ينقّي القلب من شوائبه ويطهّر النفس من نوازع الحسد مثل الهدية، فهي كالسُّقيا التي تُحيي النفوس الضائعة، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.

إن في الهدية تجسيد لكل شيء جميل، وفيها شفاء لكل قلب عليل، ولا يهمّ حجمها أو نوعها، فالمهم هو كُنْهُها وقَصْدُها وصفاؤها، يقول علي بن أبي طالب: «لا تستحِ من إعطاءِ القليل، فالحرمان أقلّ منه». والهدية مثل الكلمة، تسقط على قلب المتلقي فتصيب هواه وتلامس شغافه، تَلِجُ النفس دون استئذان، وتدلف إلى أحلامنا ضيفاً خفيفاً نهواه منذ النظرة الأولى.

الهدية تشبه يوم العيد، يضجّ صباحه بالفرحة، ويمتلئ مساؤه بالذكريات الجميلة، وهذا هو السلام الحقيقي. لا تحلو الهدية إلا عندما تأتي قبل أن نشعر بالحاجة إليها، لكي تخلق هي الحاجة، دون تكلّف أو صَخَب، ودون تباطؤ أو تردّد. يقول الإيطاليون: «من يُعطي بسرعة فقد أعطى مرتين».

ماذا لو اختفت الدائرة؟

منذ قديم الزمن، شغلت الدائرة تفكير العلماء والمخترعين كاليوناني إقليدِس، الملقب بـ«أبو الهندسة» الذي شُغل بالدائرة وتحدث عنها كثيراً في كتابه «العناصر» وظلّت نظرياته في علم الرياضيات والهندسة تدرس حتى القرن العشرين. درس إقليدِس فرضيات الدائرة وأبعادها، فقادته إلى استنتاجات كثيرة تحولت إلى أساسيات في علم الهندسة، ثم وضع بناءً عليها نظام «البديهيات» الذي تطور لاحقاً على يد العالم المسلم محمد الخوارزمي إلى «علم الجبر».

لقد كانت الدائرة ولا زالت إحدى أهم بديهيات الحياة التي لا يمكن للإنسان الاستغناء عنها، فبفضلها تقدمت البشرية وارتقت، وكلما تعرف الإنسان عليها أكثر كلما تطورت حياته.

انظر حولك، فلولا الدائرة لما اختُرِعت العجلة التي يقول المؤرخون إنها وُجدت في الألفية الخامسة قبل الميلاد، وبها تمكن الإنسان من قطع الدروب القفار بيسر. لولا الدائرة لما تمكن مطوّروا الإطارات المطاطية من أمثال الاسكتلندي «جون دنلوب» والفرنسيان «إدوارد وأندريه مشيلان» من تغيير حياة البشر.

فكلما ركبتُ السيارة أمعنت التفكير في الإطارات التي تدور تحت تلك الهياكل الحديدية من حولي واستغرب، كيف استطاع الإنسان أن يوجد هذه البديهية الجدلية التي تنقله بسرعات فائقة وعبر مسافات طويلة دون أن يشغل ذلك باله! ثم أتساءل، لماذا نسمع عن الطريق الدائري في المدن، لتسهيل حركة المرور، ولا نسمع عن الطريق المربع؟

لولا الدائرة لما استطاع الإنسان أن يطير، فلم نرى يوماً، وربما لن نرى، محركات طائرات مربعة أو مستطيلة، لا أدري لماذا، ولكن يبدو أن المحركات الدائرية هي الوحيدة القادرة على حمل الإنسان في السماء، والانطلاق به إلى الفضاء.

تكاد الدائرة تشكّل كل شيء في حياتنا دون أن نلقي لها بالاً. انظر إلى المصابيح الكهربائية حولك، هل ترى مصباحاً مربعاً أو مستطيلاً؟ انظر إلى غطاء قنينة الماء، هل يمكنك تخيله مثلثاً؟

إن الدائرة معضلة أعجزت العلماء على مر التاريخ عن حلّها، فهناك ما يعرف بمشكلة «تربيع الدائرة» القائلة باستحالة تحويل مربع بأبعاد معينة إلى دائرة باستخدام نفس الأبعاد والحصول على نفس المساحة، لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية. يا لهذه الدائرة التي لو اختفت من حياتنا لعدنا آلاف السنين إلى الوراء، ولتوقف كل شيء في حياتنا. تُرى كيف سيبدو العالم دون دوائر؟

ليس للدائرة أطراف حادة، ولذلك فإنها لا تنكسر بسهولة، وإذا ما اصطدمت بشيء فإنها لا تؤذيه مثلما تفعل الأشكال الأخرى. ليس للدائرة غير وجه واحد فقط، بعكس المربع الذي يحمل عدة أوجه، وعليك أن تتأكد جيداً عندما تشتري بضاعة مربعة بأن جميع أوجهها سليمة. الدائرة لا تغشّك مثل المربع، إنها صادقة دوماً وتحكي ما يدور بداخلها دون تردد، لذلك كانت العيون دائرية.

الدائرة هي الصفر، ذلك الرقم الرمزي شكلاً، الحقيقي فعلاً. الصفر يضاعف الأرقام دون أن «يضربها» ودون أن يؤذيها، فهو على صمته وبساطته، يحيل العشرة مئة، ويحيل المئة ألفاً دون أن يتكبد عناء التوقف عند الأعداد التي تقع بينهما. كم هو سريع هذا الصفر، وكم يختصر حياتنا، مثل الدائرة تماماً، ولذلك يفضّل الإنسان أن يخسر رقم تسعة أو ثمانية على أن يخسر صفراً واحداً.

الدائرة هي النقطة، ولولا النقطة لعادت القراءة وانحصرت في مجموعة قليلة من الناس ولانحسرت إلى الزاوية. النقطة عدوّة الجهل، تحاربه كل يوم، وفي كل مكان... في الكتب، وفي الصحف، وفي الإنترنت. توضع النقطة في آخر السطر لتدعونا إلى التوقف والإنصات، فكلّما أنصتنا أكثر كلّما تعلّمنا أكثر.

إن الأشكال ذات الأطراف الحادة تعبّر عن الشدة والغضب

أحياناً، هكذا تعلّمنا في علم التسويق، وكانوا ينصحوننا باستخدام أشكال ذات أطراف دائرية حتى لا يشعر الناظر إليها بالخطر، وحتى يحبّها، وربما حتى يحبّنا.

لو كانت الأرض مربعة لكانت لها أطراف ونهايات، ولتوقف الرحالة والمسافرون عند أول نهاية صادفتهم، وحدها كروية الأرض دفعت الإنسان إلى اكتشاف المجهول، وبفضل هذه الكروية، يشعر الناس بأنهم متساوون ومتقاربون. أكثر ما أحب في الدائرة هي أنها تجسيد للأبدية، فلا بداية لها ولا نهاية، ولذلك كان خاتم الزواج دائرياً. قد تعبّر الدائرة عن الحب في قلادة ذهبية، وقد تعبّر عن الظلم في حبل مشنقة... قد تكون الدائرة فوّهة بندقية، وقد تكون طوق نجاة.

إن أكثر ما يعجبني في الدائرة هو خلوّها من الزوايا، فالزاوية هي نهاية الطريق، وفيها تَحتَبِسُ العتمة ويختبئ الظلّ، وفيها تبني العنكبوت بيوتها، وإليها تنزح الحشرات وفيها تسكن الكائنات التي لا نحبها، والتي نخشاها أيضاً. علينا ألا نظلم الدائرة لأننا نحن الذين نحدد استخداماتها. الشيء الوحيد الذي تعرفه الدائرة هي أنها تحب أن تدور على الدوام، وتمشي إلى الأمام، وحده الإنسان يسعى لإيقافها أو عكس دورتها، عندها، تصبح الحياة دائرة مفْرَغة، ويغيب الشعور بالإنجاز، فالعبث يُفضي إلى الجهل، والشغف يُفضي إلى المعرفة.

التصالح مع الذات

يروي «ستيفن كوفي» في كتابه «العادات السبع للناس الأكثر فاعلية» قصته مع رجل ركب معه المترو يوماً مصحوباً بأطفاله الذين كانوا يقفزون من كرسي إلى آخر، وكان صراخهم يكاد يصمّ آذان الركّاب دون أن يتكلف الأب حتى عناء النظر إليهم. لم يحتمل كوفي تلك الفوضى، فهجم على الرجل بكلام قاسٍ وطلب منه أن يضبط أطفاله.

انتبه الرجل فجأة وقال له: «اعذرني، فلقد توفيت أمهم في المستشفى قبل قليل ولم أنتبه لهم من هول الصدمة، أنا آسف». عندها لم يعرف كوفي ماذا يفعل، وتمنى لو أنه تريّث قليلاً قبل أن يحكم على الرجل بأنه مُهمِل.

إن ما قام به كوفي هو تصرف مألوف يمتهنه بنو البشر. فلا يكاد أحدنا يرى شخصاً غريباً، حتى يبدأ بإطلاق أحكامه عليه، وخصوصاً إذا كان ذلك الشخص ينحدر من ثقافة أخرى أو من معتقد آخر.

كلّنا يحمل في داخله قاضياً صغيراً، ولكنه ظالم في كثير من الأحيان، ومتسرّع في إطلاق أحكامه. قاضٍ لم تنصّبه

المحكمة، بل إنه حتى لم يدرس القانون، فهو نتاج لصراع الإنسان مع ذاته، وعراكه المستمر مع نفسه. ولذلك، يرفض هذا القاضي أي صلح بين المرء وبين نفسه.

لكي تتصالح مع الآخرين عليك أولاً أن تتصالح مع ذاتك، وأن تقبلها بكل عيوبها، بضعفها وبزلاتها دون أن تحكم عليها، ودون أن تصنّفها أيضاً. عليك ألا تقهر نفسك، ولا تهينها ولا تحقّرها، فكما تدينها تدينك، والجزاء من جنس العمل. أن تتصالح مع ذاتك يعني أن تَقْبل الآخر بكل اختلافاته وتناقضاته، ليس لأنك تحبه، ولكن لأنك، ببساطة، لا تكرهه.

انظر إلى غاندي، ومانديلا، والأم تريزا، هؤلاء أمثلة على أناس عقدوا صلحاً أبدياً مع أنفسهم، لأنهم اكتشفوا بأن كره المرء لنفسه هو أسوأ خطيئة يرتكبها الإنسان في حياته، وحتى بعد مماته.

يستغرب البعض كيف استطاع مانديلا أن يعيش في زنزانة ضيقة طوال سبعة وعشرين عاماً، الجواب ببساطة هو أن مانديلا تجاوز نفسه ليتصالح مع الكون كلّه، ومع الوجود، فاتسع قلبه لكل المعتقدات ولكل الأشكال ولكل الألوان، فأصبح «سعادة» تمشي على الأرض. ليس النجاح في الوصول إلى السعادة، ولكنه في إيجادها. هؤلاء أوجدوا سعادتهم في عنابر السجون، وفي مخيمات المعدومين والفقراء.

أن تتصالح مع ذاتك يعني أن تترك الوعظ جانباً وتهبط إلى المجتمع حتى تفهم مكوناته، وتستوعب تقلّباته التي تشكّل، في خضم تناقضاتها، نسيجه اللامحدود، الذي لم يزده الوعظ تماسكاً. يعتقد ابن خلدون بأن الوعظ، في أحيان كثيرة، يؤدي إلى سفك الدماء. فالناس، لبساطتها، تثيرها المشاعر، ويهيجها الكلام الوعظي، فتندفع كبركان ثائر، ليدمّر الأخضر واليابس. انظر إلى الشباب من حولك، هل زادهم الوعظ صلاحاً؟

أن تتصالح مع ذاتك يعني أن تدرس الواقع كما هو، دون أن تفرض عليه قوانينك أو معتقداتك أو تعاليمك، ودون أن تنصب ثقافتك كميزان لقياس مدى صلاح المجتمع، فكل يعتقد بأن ثقافته هي الأصوب. أن تتصالح مع ذاتك يعني أن تتخلى عن الخرافة، ولن يتأتى لك ذلك إلا من خلال العلم. فكما تقول الحكمة: كلّما زاد العلم، قلّت الخرافة. تأمّل قليلاً وستعرف ما هو العلم، يقول كونفوشيوس: «لكي تصل إلى المعرفة عليك أن تبدأ بالتفكير».

أن تتصالح مع ذاتك يعني أن تدفع بالتجريد إلى حده الأقصى، لكى ترى الوجود الخالص المجرد من كل ما هو حسّي، وكل ما هو تاريخي. يعني ذلك أن تنسى تاريخك، للحظات، وتبدأ تاريخاً جديداً، تستهله بحلم أو طموح، تاريخٌ يبدأ بكلمة «اقرأ».

عندما ترى شخصاً ما يقوم بفعل سيء، في عُرفِك، فلا

تحكم عليه بأنه إنسان سيء، فلقد قال الفلاسفة، بعد ألفي عام من النقاش، إن جوهر الشيء لا ينتمي إلى الشيء ذاته، فقد تكون الظروف، وليست نفسه الشريرة، هي التي دفعت فقيراً إلى السرقة. لقد توصل الفلاسفة إلى أن جوهر الشيء مرتبط بعالم الفكر والروح، لا عالَم المادة، لذلك كان التصالح مع الروح هو أول خطوات الحضارة.

لكي تتصالح مع ذاتك عليك أن تعود بذاكرتك إلى الوراء، وتبدأ منذ أول ذكرى في حياتك، وعند أول معلومة حفظتها، ثم قم بمسح كل ذكريات العنف والأسى والقهر، وامسح كذلك كل ما حفظته من شعر الحماسة وشعر الهجاء، ولا تنسى أن تمسح أيضاً كل معلومة عن الحروب التاريخية، تلك التي عاصرتها، أو قرأت عنها، أو حتى تمنيتها.

أن تتصالح مع ذاتك يعني أن تناهض التعميم، وتعارض فكرة الشمولية. فالتعميم يلغي خصائص الأشياء ويمحق صفات الناس المتباينة، ليحيلهم جميعاً إلى قالب واحد، أشبه بالحجر في قسوته، وأقرب إلى الفخار في هشاشته. التعميم يلغي مميزات الأشياء، تماماً مثلما يلغي الظلام كل الألوان. التعميم هو أقرب وصف للظلام.

المتصالح مع ذاته يشبه النهر الذي يستمر في صبّ مياهه العذبة في البحر المالح على الرغم من علمه بأنه لن يحيله

حلواً، فهو يعلم بأن مهمّته تكمن في ري الأراضي التي يمرّ عليها، وليس في تحلية مياه البحر.

المتصالح مع ذاته ينصت كثيراً، ليفهم أكثر، ينصت للأفكار التي يبثها الناس في السماء من حوله، تلك التي تحلّق وتحط على الصامتين، المنصتين، المتأملين، الذين يظنون بأن الفكرة لا تحلّ إلا على من يستحقها فقط.

السماء لذلك المتصالح هي مصدر الحكمة، والأرض هي مصدر الشقاء، لذلك تجده يطيل النظر إلى السماء دائماً، حتى يتحلى بصفات أهلها. تقول الحكمة: «الأشخاص العظام يناقشون الأفكار، والأشخاص العاديون يناقشون الأشياء، أما الأشخاص الصغار، فإنهم يناقشون الأشخاص».

الخائفون من الإبداع

سمعتُ يوماً أحد مدربي التنمية الذاتية وهو يوضّح للمستمعين الفرق بين النخلة والسدرة. فالنخلة ترمي بَلَحَها بعيداً عن ظلّها، وبعد أن تذوب البلحة بفعل الطقس، تغوص نواتها في الرمل لتنبت وتورق وتصبح نخلة جديدة. أما السدرة، فإنها ترمي بثمرها (النبق) تحتها مباشرة، حيث تمتد أغصانها في كل اتجاه لتغطي الثمر المتساقط الذي يبقى في الظل ثم يموت ولا ينبت شيئاً، لأنه يفتقر إلى الشمس والضوء.

وعلى أساس ذلك التصنيف يتوزّع الناس بين النخلة والسدرة، فهناك من يرتع في الظل طوال حياته، وإن صادف وحالفه الحظ وانغرس في الرمل ثم نبت، فإنه لا يستطيع أن ينتج ثماراً ويفيد المزرعة التي ينبت فيها. وهناك من يهرب من الظل كما تهرب النواة من نخلتها، ليشبع بدنه بأشعة الشمس، التي تكون حارقة أحياناً، ثم ينطلق ليمخر عباب الحياة ويكتشف عوالم جديدة. هؤلاء فقط هم الذين نتذكّرهم بعد رحيلهم، وهم الذين نروي قصصهم لأطفالنا قبل النوم، وهم الذين تَرِدُ أسماؤهم في كتب المدرسة تحت عنوان «عظماء من التاريخ».

إن الذين يقضون حياتهم تحت ظل السدرة هم كثر، يُعرفون بسيماهم، ولكنّهم لا يتميّزون عن غيرهم من عامة الناس. هؤلاء هم الخائفون من الإبداع، فالإبداع بالنسبة لهم مشتقّ من «البِدعة» ولذلك تجدهم يحاربونه بلا منطق أو حجة، ويدعون تلك الحرب «جهاداً». الخائفون من الإبداع لا يؤمنون بتطور الحياة، ويرمون بالإلحاد كل من تُسوّل له نفس ذِكْر كلمة «تطوّر»، لأنهم يشتقّونها من نظرية «داروِن» الخرافية حول تطور الإنسان. إن الخائفين من أنفسهم هم أولئك الذين يعملون في المؤسسات دون أن تكون على مكاتبهم شاشات كمبيوتر. وإن وُجدت، فإنها غالباً ما تكون للزينة فقط. وإذا اتصلت بأحدهم وطلبت منه شيئاً، فإن ردّه غالباً سيكون بأن الموضوع ليس من اختصاصه، وعليك أن تراجع القسم المختص، الذي يبعد عنه أمتاراً قليلة. هؤلاء، لا يؤمنون بالبريد الإلكتروني، فهو للتسلية فقط، ولازالوا يستعيضون عنه بالبريد المختوم، والرسائل التي يستهلّونها بديباجة نمطية، تلك الرسائل التي أسمّيها «من جنابنا إلى جنابكم»، وكلّما طلبت منهم شيئاً يقولون لك «أرسل لنا رسالة رسمية»، تُحاجِجُهُم بالبريد الإلكتروني، فيتنطّعون بحجة افتقاره للصفة «الرسمية» أو «القانونية».

الخائفون من الإبداع يخشون أن يقتحم عليهم الإبداع كسلهم، وينتهك دعَتهم، لأنهم لا يفهمون لغته، ولا يستطيعون

مجاراته، ولأنه فقط، من يستطيع أن يكشف الأقنعة الزائفة المعلقة على وجوههم. إنهم كالواقف فوق جبل، يرى الناس صغاراً، ويرونه صغيراً.

الخائفون من الإبداع قد يبنون مدناً، ولكنهم لا يستطيعون أن يبنوا حضارة. تبدو مدنهم تلك كأوراق الشجرة، يبهت لونها بعد مدة، ثم تذبل وتسقط، لتنبت مكانها أوراق جديدة، أما الحضارة فهي الشجرة التي تظل شامخة عبر الزمان، لتشهد النمو والسقوط. في مدنهم تلك، تنهال الكآبة من كل مكان على سكّانها حتى تُطْبِق عليهم.

الخائفون من الإبداع يشبهون الشيوعيين الأوائل، الذين ألغوا الفردية واستبدلوها بالاشتراكية. اعتقد أولئك أن الاشتراكية ضرورة حتمية، ولا بد للمجتمعات من خوضها، ووعدوا الناس بالمساواة في توزيع الثروات، وفي الحقوق والواجبات، وعندما تمكّنوا من السلطة، نقضوا ما عاهدوا الناس عليه، وتحولت اشتراكيتهم إلى عبودية. عندما يذوب الفرد في المجتمع، فإنه يذيب معه كل فرصة للإبداع والتميّز، ويصبح الجميع قطيعاً واحداً، يحرثون الأرض كل يوم، ليزداد الفقراء فقراً، والأغنياء غنى.

يعرّف إدوارد ديبونو الإبداع بقوله: «هو الهروب من أنماط الحياة المتعارف عليها، حتى نتمكن من رؤية الأشياء بصورة

مختلفة». حقاً، هو الهروب أولاً وقبل كل شيء، وبمعنى آخر، هو المغامرة، ولكي تكون مغامراً فعليك أن تفرّ من البيت. يهرب المبدع من البيوت المظلمة، لا ليبحث عن النور، ولكن ليصنعه بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، وذلك أضعف الإبداع.

إن الإبداع يمنح الأمل، ويقوّي الإرادة، ويحمل الإنسان إلى خارج نطاق المعقول، إلى المريخ والمشتري. الإبداع مذهب وجودي، وسُنَّة كونية، من حادَ عنها خرج من النور إلى الظلمات. يشتق المبدعون كلمة «إبداع» من «البديع» وهي إحدى أسماء الله الحسنى، ويعتقدون بالحديث الذي يقولو «من سنّ سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها».

المبدع ومْضَةٌ من نور، وضياء يمتدّ على أفق الكون، ليحرر الأفكار، ويمحق الظلام. ذلك النور الأبدي، يبقى مكانه حتى بعد رحيل صاحبه، تماماً مثل النجوم التي ما زالت أشعتها تصلنا إلى اليوم، على الرغم من رحيلها قبل آلاف السنين. المبدع لونٌ لا يبهت، يصطبغ به كل ما يدور في فلكه الشاسع الرحب. تزيده الشمس نضجاً، ويكاد يضيء في عتمة الظلام، حتى ولو لم تمسه نار.

المبدع مرحلة تاريخية، تختلج فيها كل إرهاصات الزمن، وتتزاحم بين سنواتها الفلكية، أرجل الذين يهرولون ناحية المستقبل، دون أن تطأ أقدامهم الأرض. ابحث في تاريخ

الطبري، وفي معجم البلدان، وانظر في الإمتاع والمؤانسة، وفي قصة الحضارة، وستجد تلك المرحلة الملوّنة تكرر نفسها عبر الصفحات، وتسعى لتحقيق الغاية نفسها، وإن اختلفت الوسيلة.

الخائفون من الإبداع كالإبل المئة، لا تكاد تجد فيهم راحلة. والمبدعون كالرواحل المئة، لا تكاد تجد فيهم أُبَيْلَة، وإن وُجِدَت فلا يجب أن تبقى بينهم، فالسمكة الفاسدة تفسد السمك كلّه.

تساؤلات وإرهاصات

ما أن يموت شخص ما حتى يصبح حديث الساعة. لا يهم من يكون هذا الإنسان، صغيراً أم كبيراً، رجلاً أم امرأة، حتى وإن قضى عمره في زوايا الظل المعتم، لا يصل رحماً ولا يحضر تجمعات العائلة والأصدقاء... لا يهم من هو، ولكن ما يهم هو أنّه قد مات. عندما يغدر الموت بالإنسان، كأن يموت شخص ما في حادث سيارة مثلاً، فإن الأضواء كلّها تسلّط عليه، ورغم أن المباغتة هي من صفات الموت البارزة، إلا أن الإنسان بطبيعته يتمنى لو أنّه يتلقّى رسائل تحذيرية قبل قدومه، كأن يصيبه مرض عضال فيموت تدريجياً، أو أن يبلغ من الكِبَرِ عتيّا فيبدأ استعداده للانتقال إلى الدار الآخرة.

تمرّ بي لحظات أحسد فيها بعض الميتين، فكل إنسان منا يتمنى أن يسمع هو عبارات الحب والشوق وآهات الفراق التي يتلّقاها الميت الذي لم يعد يصغي لها الآن. في تلك اللحظات، أتمنى لو أنني كنت مكان ذلك الميت ولكن بشرط، أن أتمكن من الرجوع إلى الحياة بعد أن تُستنفد كل مظاهر الحب تجاهي.

أعرف أنه ضرب من الجنون، ولكن كذلك هو الحب، جنون المشاعر، وجنون العظمة أيضاً.

لم يخطر على بال أحدنا أن يغمر من يحب بكل تلك العبارات الجياشة الرقراقة وهو لايزال على قيد الحياة، فمعظمنا ينتظر حياته كلها ليتلفّظ بكلمة حب جميلة تجاه أحبائه الذين لا تسعفهم حياتهم القصيرة للاستمتاع بكل ذلك الحب والحنان، اللذين غالباً ما يأتيان متأخرين، وفي أغلب الأحيان، فإن معظم تلك المشاعر تذروها الرياح فوق قبور أحبائنا دون فائدة.

عندما يموت شخص عزيز، نبكي عليه (بحرقة) وكأن الدمع الذي يشكّل الماء معظم مكوّناته قد استحال إلى نار إغريقية، يزيدها الماء اشتعالاً، ولا تنطفئ حتى تلتهم كل ما أتت عليه. ولكن لماذا نبكي؟ هل لأننا لا نعلم ماذا سيحل بذلك العزيز؟ أم لأننا لم نتعوّد فراقه؟ أم نحمد الله أننا لم نكن مكانه؟ من الناس من يصرّ على حضور دفن الميت في المقبرة، ربّما ليس لتأدية الواجب الديني، ولكن ليوقن بأن ميتّه قد مات فعلاً، يا للغرابة! أسمع هذا الكلام كثيراً دون أن أعلم إن كانت تلك إحدى نظريات علم النفس، أم أنها إحدى الإرهاصات التي تسكن بني البشر. هناك مثلٌ يقول: «كلما كثر العِلّم، قلّت الخرافة» ولكن الموت حقيقة وليست خرافة... الإنسان فقط هو الذي يحيك تلك الخرافات حول الغيبيات، وخصوصاً الموت.

أن تموت يعني أن تترك كل شيء، أن تفارق كل شخص، وأنت بموتك تجزم، أياً كان معتقدك، بأن الدنيا هي دار عبور فقط. تهتم الشعوب بطقوس الموت كثيراً، حيث تختلف ممارساتها ولكن تتفق جميعها في الهدف المرجو من ذلك، وهو العبور إلى دار السعادة. هناك من يعتقد بأن الإنسان لا يموت إلا بعد أن تنقضي مهمّته في الحياة، حتى وإن كان طفلاً، فاستمراره في الحياة لن يضيف لها شيئاً، ولذلك فإن أجله كان لابد وأن يحين في تلك اللحظات، التي نتمنى كلّنا لو نعرف متى تحين.

أتساءل أحياناً عن حال الإنسان الذي يعلم يقيناً أنّه مفارق للدنيا قريباً، ماذا يدور في رأسه؟ هل سيفكر في أهله وأحبّائه، أم أن تركيزه سينصب تماماً على الاستعداد لما سيأتي... للوحدة والقبر. رغم كل المعتقدات التي يؤمن بها البشر، يظل الموت لغزاً محيّراً لم يستطع أحد فكّ رموزه، ومهما قال الإنسان عنه، سيظل همّه الأكبر، وهاجسه الأكثر وحشة طوال حياته. في أوقات الموت يصمت الإنسان ليتخيّل نفسه مكان ذلك الميت المسجّى أمام الجميع، وفي تلك اللحظات الطويلة في تاريخ الذكريات، يمكن للإنسان الاستماع لأي شيء دون نقاش، للموعظة، للبكاء، للنحيب، لكل شيء ما عدا الواقع الذي يتحول وقتها إلى ماضٍ بعيد، يحاول الإنسان نسيانه ليركزّ على الحاضر... على الجثة الهامدة التي يكسوها الموت أمامه.

سئل يوليوس قيصر: أي موت أحب إليك؟ فقال: الموت المفاجئ. وفعلاً تحققت أمنيته على يد معارضيه الذين دبّروا له عملية اغتيال وصفها شكسبير بأنها أقبح عملية اغتيال في التاريخ، لتنطبق عليه المقولة التاريخية الشهيرة: «احذر مما تتمنى Be Careful What You Wish For».

إن الذين يقومون بأعمال جسام في حياتهم لا يخشون الموت، بل يرونه تتويجاً لحياة مليئة بالإنجازات والنجاحات حتى وإن كانت صغيرة، فلا يهم حجم الإنجاز الذي تحققه، ولكن الأهم هو نوع ذلك الإنجاز، والإنجازات العظيمة أهم من الحياة العظيمة. يقول الشاعر الاستكلندي روبرت ستيفنسون: «تحت السماء الواسعة المرصّعة بالنجوم، أحفر قبراً به أستريح، عشت سعيداً، وسأموت سعيداً». سؤالي لك: هل حفرت قبراً قبل اليوم؟ وإن كنت قد فعلت ذلك، فهل يمكنك أن تذهب إلى المقبرة لتحفر قبرك بيديك؟ إن استطعت فعل ذلك فاعلم أنّك قد تكون أعظم من يوليوس قيصر نفسه.

الحب والإيمان

عندما انتشرت الصحف في الوطن العربي إبّان القرن العشرين، أخذ فن المقال مكانه على صفحات الجرائد والمجلات التي كانت تصدر بين الفينة والأخرى، كمجلة «الرسالة»، و «فتاة الشرق»، و«الأستاذ»، وغيرها من الدوريات التي حملت بين طيات صفحاتها مقالات أدبية لكبار الأدباء العرب من أمثال أحمد الزيّات، والرافعي، وطه حسين وغيرهم.

بل إن الأديب إن أراد أن يدخل عالم الإبداع الأدبي، كان عليه أن ينشر مقالاً في إحدى المجلات أو الصحف آنذاك، وهو تقليد نفتقده في إعلام اليوم. فإعلامنا العربي، والعالمي أيضاً، لا يحمل للقارئ إلا أخبار التفجيرات والقتل وفشل الانتخابات، وغيرها من القضايا التي تهم مجموعة من البشر وليس البشر كلهم، شأنها في ذلك شأن باقي القضايا الأخرى.

لذلك، أحببت هنا أن أحيي تقليداً جميلاً لأدبائنا العرب الذين أنارت كلماتهم دروب شعوبٍ كثيرة، علَّ جرائدنا ومجلاتنا تفسح المجال لمزيد من المقالات الأدبية، التي لا تقل في مكانتها عن المقالات السياسية.

إن ما يميّز المقالات الأدبية أنها انطباعية في غالبيتها، تصور المشاعر والملاحظات دون تحليل عميق، أو أرقام مربكة. وما بين أيديكم هي بضع رسائل أرسلتُها إلى صديق عزيز، قال لي يوماً إنه يشعر بالحاجة إلى حب جديد، فكتبت له ما يلي:

الحب يا صديقي، صيرورة، لا تدرك كنهها. كالنار والفراغ، كالروح والوجود، كالزمن والخلود، لم يستطع حتى ابن رشد أن يجد له حيزاً. الحب هو النور الذي لا تحدُّه الجهات الأربع، ومتى ما انبثق لا تعود للظلام ذكرى في سجل التاريخ.

الحب مثل الذكريات، يملي علينا ولا نملي عليه، يأتي إلينا ولا نذهب إليه، يقتلنا ولكننا نشتاق له. لا تهرب من الذكريات، فهي معك حتى وأنت تفارقها، وكلما ابتعدت عنها كلما اقتربت منك.

كن معشوقاً ولا تكن عاشقاً، فأن تعشق يعني أن تبحث عن الحب، كالذي يسعى أن يرسم فراغاً في لوحته... يا له من مجنون! كيف يمكنه أن يجد الفراغ؟ الحب هو اللاشيء يا صديقي، وبوجوده يوجد كل شيء، فبضدها تعرف الأشياء... وبدونه تصبح الحياة هي الموت.

أتعرف ما هو الضدّ؟

هو الشيء الذي تتحاشى أن تحصل عليه طوال حياتك، وإذا ما وجدته صدفة، تدرك أن حياتك كانت هباءً قبله. كم هو جميل أن نجد أضدادنا في الحياة، فهم فقط من يجعلنا نسعى للكمال.

وهم أيضاً من يجعلنا ندرك أن الحب ليس في الجمال والسعادة فقط، بل أجزم بأن التعاسة هي فتيل الحب، فلولا رحيل خولة لما قال طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

أتعرف ما هي الأطلال؟

هي الأشياء التي نخاف منها ونسعى في سبيلها دون أن نشعر. هي الألم اللذيذ، هي الإشفاق على النفس والاستمتاع بشقائها.

هي الحب يا صديقي. الأطلال هي الحب، فلا تقف عليها كثيراً. لا موت في الحب، كما أنه لا حياة فيه. الحب جدلي الوجود، لا يتحقق إلا بوجود العنصر وانتفائه، دون أن يجتمعا فيقضي أحدهما على الآخر. كالخير والشر، الروح والمادة، النور والظلام، والموت والحياة، تماماً مثل ضفتي النهر، تسيران جنباً إلى جنب، فإن التقتا توقف تدفق المياه وتحول النهر إلى بحيرة.

أتعرف ما هي البحيرة؟

هي نهاية الحب وبدايته. هي مزيج من كل التجارب التي مرت بها مياهها، من صخور وحفر، أشجار ونباتات، وهي لوحة كبيرة عملاقة، تجسد كل ما مرت عليه مياهها من صور ومناظر

خلال سفرها الطويل، ولذلك يمكن تقدير عمر البحيرات ولا يمكن تقدير عمر الأنهار.

أتعرف ما هو السفر؟

السفر ليس الفراق، بل هو الانعتاق. هو الانعتاق الأزلي من قشور الحياة والغوص في جوهرها. السفر هو اتحاد الجسد مع الروح من خلال البحث عن السعادة، التي هي أقصر طريق بين المرء وبين قلبه. السفر هو اللقاء الحميم بين العقل والفكرة التي لم تولد بعد.

أتعرف ما هي الفكرة؟

هي تجسيد لحياتنا الأولى، هناك في الأزل البعيد، في ذاكرة الكون، وفي أحلام الزمن. هي الحياة التي نتمنى لو أننا ننتمي لها حتى وإن كانت قاسية، فهي على الأقل تمثلنا نحن ولا تشقى بنا كحياتنا هذه التي نشقى بها.

أتعرف ما هي القسوة؟

هي رغبتنا في أن نكون مخلوقات أخرى غير البشر. القسوة زمن آخر، طويل قصير، نريده أن يستمر ويريد هو أن ينصرف. عندما نقسو نعود إلى طبيعتنا الرملية الأولى، التي يحيلها الماء إلى طين، ثم تحيله القسوة إلى حجر.

الحب هو القسوة يا صديقي هو القسوة، فلتحنُ على نفسك قليلاً.

المحب يهوى الماضي ويخشى المستقبل، فالماضي بالنسبة له بقاء، والمستقبل فناء. أما الحاضر فإنه كالشفق الذي نعشقه بسرعة ثم نتمنى زواله حتى لا نسأم لونه ومكانه.

أتعرف ما هو المكان؟

هو حالة إنسانية يختصم فيها العقل والقلب، فالعقل يسعى دائماً لتأطير كل شيء وتحويل المحسوس إلى ملموس، أما القلب فإنه يؤمن بأن المكان هو كل ركن يصل إليه النور، ولا يأبه إن كان المكان موجوداً أم لا. هل السماء مكان؟ السماء وجود نعلم أنه هناك ولا ندري أين، ولذلك، كان الإيمان السماوي محله القلب وليس العقل.

أتعرف ما هو الإيمان؟

يعتقد البعض أن الإيمان هو نقيض الشك، ولا يدركون أن الشك هو جزء من الإيمان. فعندما تشك فإنك تسعى لمعرفة الحقيقة، وعندما تجدها فإنك تجد الإيمان عندها. الإيمان حاجة كونية، نحتاجها لكي نحب.

لا يمكننا أن نحب من لا نؤمن بهم، ولكننا نؤمن بمن نحبهم. إن الحب الذي لا يمنحنا الإيمان بأنفسنا هو حب ناقص، لم يعرف طريقه إلى القلب. أليس الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل!

الحب هو الإيمان يا صديقي. هو الإيمان، فلا تكفر به.

على ضفاف الشارع الخامس

على ضفاف الشارع الخامس تتلألأ ضوضاء الكون، وتنير أصوات الشارع طرقاته المكتظة بالناس والآلات. يعتقد البعض أن الآلة عدوة الإنسان، فهي التي سلبته حريّته، وهي التي دمّرت كوكبه، وهي أيضاً التي تقتل أخاه الإنسان كل يوم. يا لجهل البشر الذين لم يؤتوا من العِلم إلا قليلاً!

فلقد أوتوا علوم تصنيع الآلة بأنواعها، ولكنهم لم يحسنوا استخدامها، فالآلة التي يفجّر بها الإنسان المدن ويبيد الحرث والنّسل، هي نفسها الآلة التي تحرث الأرض وتخرج له خيراتها. والآلة التي يدوس بها الإنسان أخاه الإنسان وسط الشارع دون اكتراث، هي نفسها التي توصله إلى المستشفى في حالات الطوارئ لتنقذ حياته.

على ضفاف الشارع الخامس في نيويورك، يتسابق الناس حتى في الأعياد والإجازات، ليس للوصول إلى خط النهاية، فنهاية أحدهم قد تحلّ به قبل أن يبدأ السباق، ولكنهم يتسابقون بحثاً عن المجهول، وبحثاً عما يَعِدُون به أنفسهم كل يوم، بحثاً عن الأمل، ذلك الذي قال عنه الطغرائي:

أُعَـلِّـلُ الـنـفـس بـالآمـالِ أرْقُـبُـهـا
مـا أصـعَـبَ الـعـيـشَ لـولا فـسـحـةُ الأمـلِ

تُرى ماذا كان الطغرائي سيقول لو مرّ في الشارع الخامس؟ هنا حيث البشر لا يعرفون البشر، فالكل منشغل بما يدور في رأسه هو فقط، وتَراهم بسبب ذلك يمشون مطأطئي الرؤوس، تغويهم الفكرة حتى وإن كانت عابرة. ظننت أنّهم يراقبون أحذيتهم، فتذكرت حينها مقولة أحد أساتذتنا في الجامعة: «إن كل من يريد أن يعمل في الحكومة بعد تخرجه، فهو لا يرى أبعد من قدميه». وفكّرت حينها لماذا ينتقد الناس قِصَر النظر؟

هل على كل إنسان أن ينظر أمامه لكي يحظى باحترام العالم؟ كم عالم رياضيات وفيزياء وفلك حققوا نتائج علمية وأنتجوا اختراعات أفادت الإنسانية دون أن ينظروا إلى الأمام؟ فكم من هؤلاء كان يخاف الحديث مع الناس ويخشى الأماكن العامة، فازدراه المجتمع دون أن يعلم أنّه أبرّ أبنائه وأصلحهم!

سمعت يوماً عن رجل أُدخِل إلى غرفة العمليات لكي تجرى له عملية جراحية، وقبل أن يضع طبيب التخدير المخدر في يده قال المريض: «انتظر، أريد أن أقول لك شيئاً. كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

عندما خرج الطبيب أخبر ابن المريض بما جرى وسأله عن

السبب، فقال له: «إنّ أبي رجل بسيط، لم يحقق في حياته شيئاً يستحق الذكر، ولكنّه يعتقد أن إسداءه النصيحة لكل شخص يقابله، يكفيه عن أي إنجاز آخر». أتساءل مرة أخرى، ماذا كان سيفعل ذلك الرجل لو مرّ بالشارع الخامس؟

في ذلك الشارع تُزيّنُ مساحيق التجميل كل شيء؛ الوجوه، والحقائب، والمباني، وواجهات المحلات التجارية، حتى القلوب الصغيرة المعلّقة على الأبواب والمداخل، لا تشعر بوجودها لأنها مليئة بمساحيق التجميل.

تحت تلك المساحيق تبرز طبقة أخرى من البشر، لا تدري لماذا تعبر الشارع الخامس كل يوم، ولكنها تعلم جيداً أنه لا مكان لها هناك من دون مساحيق. سألت إحدى النساء اللائي يكتسين بمساحيق تجميل غريبة عن محل ما، فأصرّت أن توصلني إليه، وقبل أن أشكرها همّت بالرحيل دون أن تنتظر مني كلمة شكر، فهل هي مساحيق التجميل التي تجعل أولئك الناس في عجلة من أمرهم دائماً؟ أم أن قوانين الشارع تلزمهم بمساعدة الغرباء، ولكنها تهيب بهم التحدث إليهم؟ شعرت في بعض الأحيان بأن جميع روّاد الشارع يتمنون لو أنهم بكمٌ يتعاملون بلغة الإشارة، فهم يفضّلون الصمت والوحدة، حتى وهم يعبرون أحد أكثر شوارع العالم ازدحاماً بالمارة.

كان الوقت قُبيل عيد الميلاد، وكانت الشوارع تزدان بالأنوار

والأشجار التي تنافست المحلات في تزيين واجهاتها بها، إلا أن أحداً من المارة لم يعبأ بكل تلك الجلبة، فالكل يريد أن يعبر إلى الضفة الأخرى من الشارع فقط. عبرت معهم في أمواج من البشر، وعندما وصلت وجدت المزيد من الإرهاصات التي تمتد على ضفّتي الشارع دون أن تلتقيا.

رأيت أناساً يمارسون رياضة الجري، ولكن أكثر ما أدهشني أن بعضهم كان يجري خارجاً من الحديقة الوسطى (سنترال بارك)، متجهاً إلى فوضى الشارع الخامس وصخبه، تلك الحديقة التي تراءت لي كواحة غنّاء وسط صحراء المدينة الإسمنتية التي تكسوها البهجة، ويتخللها التعب.

كانت ناطحات السحاب تتزاحم حول الحديقة، حتى بدت وكأنها تخسر شيئاً من ارتفاعها كل يوم، تماماً مثل الكثبان الرملية.

يقول البعض إن تلك الغابات الإسمنتية هي إحدى الصفات الجميلة لمدينة نيويورك. لا أعلم إن كان ذلك صحيحاً أم لا، إلا أنني أعلم جيداً أن كثيراً من سكّان نيويورك يفضّلونها على البحر والغابات الخضراء.

عندما تمضي نهاراً كاملاً في حديقة سنترال بارك، توقن أنها تُحرِجُ بأشجارها القصيرة، الأبراج الشامخة من حولها، وكأنها تقول لهم: «أنا ملجأ الهاربين منكم، وأنا ملاذ كل من

يريد أن يزيل المساحيق من على وجهه، وأنا أيضاً من يأتي إليها الناس ليستعيدوا ما سلبتموهم إياه». يا لغرابة سكان نيويورك، كيف يحبون النقيضين، الإسمنت والأشجار!

في الشارع الخامس حُفِر اسم إحدى أكبر شركات الرذيلة على مدخل برج عملاق، وأمام ذلك المدخل وقف رجل يجمع تبرعات من الناس لصالح المتشردين. الغريب أن بعض الخارجين من تلك الشركة أخرجوا بضعة دولارات من جيوبهم ورموها في صندوق التبرعات، هل تراهم فعلوا ذلك للتكفير عن خطاياهم؟ أم أنهم أرادوا أن يساعدوا المتشردين فقط؟ لا يخجل الناس في ذلك الشارع من التفسّخ، ولكنهم لا يترددون في إخراج الصدقات أمام الملأ، ترى أيهم أفضل، أولئك الذين يخطئون ويحسنون، أم أولئك الذين لا يخطئون ولا يحسنون؟

أكواب القهوة في الشارع الخامس أطول بكثير من أكواب القهوة في بلادنا، فالقهوة تمثل لهم وقوداً يومياً يبقيهم على قيد الحياة، أما في بلادنا فإن القهوة تعد إحدى أدبيات الكرم والضيافة والمتعة والاستجمام.

في إحدى الليالي الباردة، رأيت على ضفاف الشارع الخامس عازفاً يعزف على آلة الساكسفون، فسألته إن كان يرغب في بيع آلته، فقال لي: «أنا أعزف لأنشر الحب بين الناس، فإن كنت تعزف أفضل مني فخذها دون مقابل، علّك تنجح في ما فشلت في تحقيقه».

مجتمع «بلاك بيري»

يجلس في مطعم فيخرج هاتفين ـ على الأقل ـ من جيبه ليضعهما في مكان بارز على الطاولة أمامه. لا يقرأ لائحة الطعام، ومعظم أصدقائه الجالسين على الطاولة يفعلون مثله، فيقع اختيار وجبات الطعام على المسكين الذي يملك هاتفاً واحداً فقط، أو ذلك الذي لم يسعفه الوقت لامتشاق هواتفه من جيبه بعد.

وخلال جلسة العشاء تلك، يومئ كل منهم على هواتفه كل دقيقة ليتأكد بأنه لم يغفل رسالة نصية، أو بريداً إلكترونياً، أو رسالة عبر «الماسنجر» في جهاز البلاك بيري.

إذا تحدثت مع أحد هؤلاء تتفاجأ به وهو يشيح بوجهه عنك فجأة دون استئذان، حتى وإن كنت مسترسلاً في حديث معه، ليستقبل اتصالاً هاتفياً قد لا يكون مهماً، دون أن يخطر على باله مثلاً أن يؤجل الردّ على المتصل حتى تنفضّ الجلسة، أو على الأقل، حتى تنتهي من كلامك. عندها تتساءل: لو كنت أنا المتصل فهل كنت سأحظى باهتمام أكبر؟

هذه بعض تصرفات من أسميهم بـ «البلاك بيريين» الذين يتعاملون مع المجتمع من حولهم، مثلما كان النبلاء يتعاملون مع أفراد الشعب الآخرين في فرنسا قبل الثورة الفرنسية، ولكن الفرق هو أن المجتمع الفرنسي آنذاك كان مقسماً إلى عدة طبقات، منها رجال الدين والبرجوازيون وطبقة الشعب الفقيرة، أما البلاك بيريون فإنهم الأغلبية الساحقة في مجتمعنا الخليجي. بدأ هؤلاء بالظهور بعد انتشار جهاز «بلاك بيري» منذ سنتين تقريباً بين عامة الناس.

حيث كان هذا الجهاز محصوراً في فئة الموظفين الكبار، الذين تهمهم متابعة بريدهم الإلكتروني على مدار الساعة، ولكن بعد ظهور جهاز «الماسنجر» للتواصل في هاتف البلاك بيري، أصبح اقتناؤه فرض عين على شباب وفتيات الخليج.

من الطرائف أن الرئيس الأميركي باراك أوباما ساهم في تسويق البلاك بيري دون أن يعلم، فلقد التقتطه عدسة أحد المصورين وهو خارج من البيت الأبيض حاملاً في يده جهاز بلاك بيري، لترتفع حصة الجهاز من سوق الهواتف المتحركة في الولايات المتحدة وحدها إلى نسبة 56%، بحسب مجلة فورتشن.

لقد تحول البلاك بيري من مجرد هاتف محمول إلى ثقافة جديدة، ينشغل المنضوون تحت لوائها بصغائر الأمور في غالبية الأحيان، فهي ثقافة سطحية وسريعة، لا تحب التفاصيل أو الفهم

العميق للأشياء من حولها، فالمهم هو الحصول على الخبر وليست مصداقيته، والأهم من ذلك هو سرعة نشر ذلك الخبر قبل الآخرين. البلاك بيريون منطوون على ذواتهم دون أن يعلموا، فترى أحدهم يشعر بالوحدة إذا كان مع الجماعة، ويشعر أنه اجتماعي إذا خلا بجهازه الأسود الصغير.

لقد أشارت إحدى الدراسات التي أجريت في بريطانيا على مجموعة من الموظفين، إلى أن البلاك بيريين يعملون عشر ساعات إضافية في الأسبوع دون أن يعلموا بذلك، وبعضهم يرسل قرابة 500 رسالة نصية ورسالة ماسنجر وبريد إلكتروني يومياً، حيث قال معظم الذين شملتهم الدراسة إنهم أصبحوا «عبيداً» لهواتفهم المحمولة، وقالوا أيضاً إنهم ينامون وأجهزة البلاك بيري الخاصة بهم أقرب إلى وسادتهم من زوجاتهم.

انتشر مصطلح في الغرب حول ثقافة استخدام جهاز البلاك بيري وهو «Crackberry»، وكلمة «كراك» تعني باللهجة الدارجة نوعا من الكوكايين، أي أن استخدام البلاك بيري أصبح إدماناً مثل الكوكايين، حيث أنه لا يمكن للبلاك بيريين الاستغناء عنه للحظة واحدة. ادخل فصلاً دراسياً في إحدى الجامعات، مطعماً، مقهى، قاعة اجتماعات، مسجداً، صالة رياضية.

وتأكد بأنك سترى جهاز بلاك بيري أمام أحدهم وعينه مسمّرة عليه. لقد أفقد هذا الجهاز الصغير أفراد المجتمع كثيراً

من أدبيات الحياة وأساسيات التعامل مع الآخرين، فتجدهم متحلّقين حول طاولة الطعام وجلّهم يعتذرون إلى أصدقائهم الموجودين على جهاز الماسنجر.

أو كما يطلق عليه «بي بي إم»، لتأخرهم في الردّ عليهم، ولا يشعرون بالحرج من أصدقائهم أو أقربائهم الجالسين معهم على نفس الطاولة، عندما يتجاهلونهم كلّما رن منبه الرسائل.

أصبحنا نعتمد على البلاك بيري، في أوقات كثيرة، للحصول على معلومة ما، فأصبنا بـ «كسل الحضارة»، فلا نحن نحفظ المعلومات المهمة في صدورنا، ولا نحن نعرف كيف نجدها إذا لم نكن على اتصال بالإنترنت، ولذلك أصبحت المعلومة سلعة رخيصة متوفّرة لنا في أي وقت، فزهدنا فيها وتركناها.

ذهبت مرة مع الكاتب البرازيلي «باولو كويلو» إلى الصحراء، وعندما جلسنا في المساء لاحتساء الشاي، أخرجت هاتفي النقال وشرعت بالتصوير، فأمسكني من يدي وقال لي: «دع عنك الآلة فإنها تفسد الطبيعة، اتركها وسوف تتّحِدُ مع الجمال». لم أستوعب تماماً ما كان يقصد، حتى اقتنيت بلاك بيري بعد ضغط من الأهل والأصدقاء.

فلقد كنت أمارس رياضة المشي قبل أيام على جهاز إلكتروني في إحدى غرف المنزل، وفجأة تذكرت كلام باولو. أوقفت الجهاز وهرعت إلى شاطئ البحر، مشيت هناك دون بلاك

بيري، اتحدت حينها مع الطبيعة، ورأيت البحر لأول مرة منذ خمسة عشر عاماً كما هو، على حقيقته المجردة، النقية من كل رسالة نصية، والصافية من كل بريد إلكتروني.

عندما يستيقظ البلاك بيريون من نومهم، فإن أول شيء يقومون به هو فتح صندوق رسائل الماسنجر، ليلقوا التحية على أصدقائهم، ويتأكدوا من أنهم على اتصال بعالمهم الوهمي. قال لي أحدهم إن زوجته أرسلت له يوماً رسالة نصية عندما استيقظت في الصباح، لأنها تعلم أنه سيقرؤها قبل أن يلتفت إليها ويقول لها: «صباح الخير».

لا شك أن التكنولوجيا ضرورية لتسيير حياتنا اليومية، فلا يعقل أن نعود إلى الوراء ونستخدم البريد المختوم والرسائل المدموغة بطوابع مستطيلة صغيرة، ولكن، لماذا لا نخصص يوماً واحداً في الأسبوع، أو في الشهر، أو في السنة، ليكون يوماً خالياً من الرسائل النصية، أو بالأحرى من الآلة، حتى نتواصل كبشر، كما كنّا نفعل في يوم من الأيام؟!

الزمن الذي نقضيه في المصعد

بين زوايا المصعد الأربع، تدور حياة أخرى، ويتشكّل عالم سرمدي الوجود، لا يكاد يبدأ حتى تتلاشى نهايته الحتمية. في ذلك الصندوق الكبير، يمتد الزمن أمام ناظرنا إلى ما لا نهاية، وتبدو الأحلام التي كنا نحياها خارجة وكأنها إلحاحٌ كاذب، يطاردنا عندما لا نعيش اللحظة، وعندما نسافر إلى البعيد، وعندما نريد أن نهرب من الظلّ إلى الظلام.

عندما يدلف أحدنا إلى المصعد، وغالباً ما يحدث ذلك فجأة، فإنه يشعر بأن ذلك المكان الضيّق الذي يخاف منه أحياناً، قد تحوّل إلى عالم جديد، يريده أن يستمر بالحركة، ويظل يخشى طوال حركته تلك من توقّفه. إذا ما دخل أحد المصعد ونحن بداخله، فإننا نشعر للوهلة الأولى بأن ذلك الشخص ما هو إلا غريب وطئت قدمه أرض الوطن، وبعد ثوانٍ قليلة يستحيل ذلك الغريب إلى مواطن بوضع اليد، أو بالأحرى بوضع القدم.

بعض الذين يركبون المصعد معنا، يحملون معهم قهوة

الصباح التي اختلسوها بسرعة من المقهى السريع الذي يقدّمها دافئة حتى يتمكن جميع المواطنين من شربها بسرعة، تماشياً مع نمط حياتهم الذي يرتفع وينزل، تماماً مثل المصعد. يحرص هؤلاء على حمل القهوة معهم لكي يؤنسوا من حولهم برائحتها الزكيّة، أو ليهيئوا عقولهم لاستقبال يوم طويل جداً. يبدأ عندما تنتهي رحلة المصعد، وينتهي عندما تبدأ رحلة العودة.

عندما يكتظّ المصعد بالركّاب، يتحول نوره الخافت إلى عتمة، وإذا أردت أن ترى من يقف حولك، فعليك أن تحيل ناظرك بعيداً عنهم، تماماً مثلما تفعل إذا جلست وحدك في غرفتك ليلاً وأردت أن ترى ما فيها، فكلّما نظرت بعيداً عن الشيء كلما برزت لك ملامحه أكثر فأكثر، وكلّما أمعنت النظر فيه، تبددت صورته في عتمة الظلام الذي نحبّه أحياناً، ونخشى منه أحياناً.

بعض الذين يرتادون المصاعد لديهم قدرة خارقة على الهروب ممن حولهم بتركيز أنظارهم على لوحة أرقام الطوابق، فيتسمّرون وكأنهم جزء لا يتجزأ من تلك البقعة النائية من العالم. حقاً، يبدو المصعد مع هؤلاء وكأنه صحراء قاحلة، لا ماء فيها ولا كلأ. مع هؤلاء الناس، لا تكاد تسمع شيئاً غير صوت أنفاسهم المدوية الذي يشبه صوت الريح في الصحراء عندما تدوّي عالياً كلما اصطدمت بجبل، أو بأمل.

بعض الناس يعشقون المصاعد، فما أن يدخل أحد هؤلاء معك المصعد حتى تعلو وجهه ابتسامة مشرقة، تبدد العتمة السوداء، فيستبيح النور ظلمة المكان، ليحيله إلى مقهى يتجاذب الناس فيه أطراف الحديث. يستهل موطنه الجديد بتحيّتك، ثم ترى عينيه تدوران بحثاً عن سؤال أو تعليق يكسر حدة الصمت الذي يفرضه المصعد على كل من يستقلّه.

يخيّل إلي أحياناً أن المصعد يشبه القبر، فهو لا يفرّق بين غني أو فقير، ولا يعرف أحد ماذا حل بك إذا ما نزلته. بعض القبور تصعد بساكنيها إلى الأعلى، وبعضها تهبط بهم إلى الأسفل. إن الصفة المشتركة بين المصعد والقبر أنه في كليهما يسلّم الإنسان أمره إلى الله، ولا يعلم أشرٌّ أريد به فيهما أم خير.

في المصعد يتعلّم الإنسان فن الإصغاء، فالهمس البسيط يتحول إلى صراخٍ عالٍ وخصوصاً عندما يكون المصعد مكتظاً بالناس، وأولئك الذين يعملون داخل مصاعد الفنادق الفخمة، تجدهم يتقنون هذا الفن الذي يعتقد البعض بأنه فن من فنون المحبة.

في المصعد تنشأ قصص حب، وتتشابك علاقات إنسانية ولكن في الوجدان فقط، ودون أن تطفو على السطح. يشعر الإنسان إذا ما ارتاد المصعد مع شخص ما كل يوم ـ وخاصة إذا ما كان ذلك الشخص من الجنس الآخر ـ بأنه يعرفه منذ

زمن. يعرف ماضيه ويستشرف طموحاته، يستشعر آلامه ويضمد جراحه دون أن يلمسها. يسافر مع فرحته عندما تقلع عن الأرض، ويحط على أرض أحلامه المتناثرة في السماء كتناثر النجوم في الفضاء.

يشعر الإنسان أحياناً بأنه يعشق ذلك الآخر الذي يجمعه به تاريخ طويل، أطول من الوقت الذي قضاه معه في المصعد بالتأكيد. غريبة تلك العلاقة التي تَسْحَقُها قرقعة أبواب المصعد عندما تفتح في الطابق المنشود. عندما نخرج من المصعد نشعر وكأننا قد نزلنا من رحم الحياة لنعيش مرة أخرى، وما أن ندخل مكاتبنا حتى ننسى ذلك الماضي الذي سيعود بالغد ليصبح ماضياً آخر.

إن المصعد هو تجسيد لجدلية الوجود الإنساني، وإجابة غير شافية على سببيّته. وهو تمثيل لطبيعة البشر الذين يَسْعَون منذ أيام فرعون للارتقاء إلى الأعلى، مع اختلاف الأسباب والوسائل. إن تزايد أعداد المصاعد هو مؤشر على رغبة وإصرار بني البشر على الاستمرار في الحياة وإبقائها في حراك دائم.

الزمن الذي نقضيه في المصعد هو زمن التحدي، وزمن الوجود الإنساني الممتد بين الحلم وبين تحقيقه، وهو أيضاً زمن الصبر، الصبر على توقّفه بين الطوابق أحياناً، والصبر على وحشته إن هو توقّف عن العمل لخلل مؤقت، وكما قال شكسبير: «ما أتعس من لا يملك شيئاً من الصبر».

لنستمع إلى النداء الذي بداخلنا

كنت أقرأ تقريراً في إحدى المجلات حول قائد الأوركسترا الألماني «فيليكس مندلسون» الذي كان أوّل من عزف مقطوعة للعازف الألماني الشهير «باخ» بعد وفاته. حيث كان التقليد حتى عام 1829م هو ألا يعزف أحد أي مقطوعة لعازف قد فارق الحياة، مما أدى إلى اختفاء مقطوعات جميلة بعد موت أصحابها اتباعاً لذلك العرف.

لقد كان مندلسون في العشرين من عمره في ذلك العام عندما أقدم على عمل غيّر مجرى الموسيقى في العالم، حيث حضر تلك الحفلة الشهيرة، ملك بروسيا والفيلسوف الألماني «هيغل». هكذا ورد الخبر في التقرير، توقّفت عند ذكر اسم الفيلسوف هيغل وتجاهل اسم ملك بروسيا، وعندما بحثت قليلاً استغربت عندما وجدت وجه الشبه بين هيغل ومندلسون.

فكلاهما شكلا نقاط تحول في مجاليهما، فهيغل كان نقطة تحول أساسية في الفلسفة الحديثة، وخصوصاً في جداله حول المادة والوعي، حيث قال إن إدراكنا للأشياء من حولنا يعتمد

على شيئين أساسيين هما الزمن والتراكم المعرفي، وكل إنسان وكل شعب يعطي تعريفات خاصة للأشياء من حوله بناءً على مخزونه الثقافي، ولكن، هذا لا يعني بأن هذه التعريفات تشكّل الحقيقة النهائية للشيء.

أما مندلسون، فعلى الرغم من أنه كان نابغة في الموسيقى، حيث ألّف 12 سيمفونية بين سن 12 و14 سنة، حتى قال عنه الشاعر الألماني غوته: «إنه مقارنة بأماديوس في صغره، فإن موسيقى مندلسون هي لغة راشد مثقف مقابل طفل يتفوه بترّهات»، إلا أن ما يذكر عنه هو تلك المبادرة الجريئة التي قام به من أجل إحياء تراث باخ، والتي جعلت باقي العازفين يعيدون إحياء مقطوعات موسيقية رائعة لعازفين آخرين، وانتهى منذ ذلك اليوم ذلك التقليد القديم الذي كاد أن يلغي الموسيقى من تاريخ البشرية.

لقد كان مندلسون وهيغل تنويريين اجتهدا في إظهار الحقيقة للبشرية، وكان كل منهما يسعى للوصول إليها بشتى الطرق، تماماً مثل سقراط الذي سبقهما بمئات السنين. فلقد كان سقراط مشهوراً بتساؤلاته وأسئلته التي كان يرمي بها في وجه كل من يلقاه في طرقات أثينا، حتى كان الناس يتجنّبونه لكي لا يقعوا فرائس في فخ حكمته.

وبسبب تلك التساؤلات، التفّ حوله شباب أثينا الذين أخذوا

يرمون بنبال حكمته تلك، قلاع السفسطائيين الذين كانوا يحاولون إلغاء الحق والفضيلة من قاموس الفلسفة ـ السفسطائي هو الذي يجادل لمجرد الجدل فقط ـ حيث كانت تساؤلات سقراط تثير الرغبة لدى الناس في معرفة المزيد، وفي كل مرة كان سقراط يتساءل مع نفسه أو يسأل أحد الناس عن شيء ما، كانت شرارة التنوير الإنساني تشع أكثر فأكثر.

أن نتساءل يعني أن نمعن التفكير، أو أن نمعن التأمل، فالتأمل في حياتنا وديننا مبدأ وضعه الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقد كان عليه السلام، يقضي جل وقته قبل الرسالة في غار حراء، والزائر إلى غار حراء يجد فيه سكينة تهدهد الروح، وتدفع بالعقل نحو البحث عن حقيقة الوجود، المتمثلة في الرسالة الإلهية التي جاء بها الوحي الأمين.

ليس المقصود بالتساؤل هنا الشك في العقيدة، وأعتقد بأن أصحاب «اللاعقيدة» يعودون للبحث عن الدين في لحظة ما في حياتهم، وأعتقد أيضاً بأن هؤلاء ينهجون هذا النهج عندما يكونون في أوج صحّتهم وجاههم، أما عندما تأتي الشدائد فإنهم يلجأون إلى الإله الذي يؤمنون به.

المقصود بالشك هنا هو عدم التسليم في الأشياء دون الاطمئنان إلى صحّتها، والطمأنينة محلّها العقل أولاً ثم القلب، فالقلب يأخذ الأمور بظواهرها، أما العقل فإنه يجرّد الأشياء ثم

يستدل على مكنونها ليصل بنا إلى الحقيقة.

إن البحث عن الطمأنينة هو مبدأ قرآني، صوّره الحق تبارك وتعالى في حوار جميل بينه وبين إبراهيم عليه السلام في قوله: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». ورد في تفسير الطبري لهذه الآية قوله: «ليس الخبر كالمعاينة» أي أن إبراهيم على الرغم من إيمانه التام بخبر الله تعالى إلا أنه أراد أن يعاينه حتى يطمئن قلبه ويسكن.

ولا يعني ذلك أن نعاين كل شيء مباشرة؛ إذ يكفي أن نعاين الأثر، فإبراهيم عليه السلام شاهد الدليل ورأى أثر قدرة الله عز وجل ولكنه لم يرَ الله تعالى.

إذاً التساؤل صفة إنسانية، تلازم الإنسان إلى أن يحجُر على تفكيره الآخرون، فحينما نقبل الأشياء دون أن نفكر فيها ونمحصها فإننا نتحول إلى قطيع يسوده الجهل وتعمه الفوضى، فالتساؤل هو الذي يفرق بيننا وبين الحيوان، وكل عظماء التاريخ كان التساؤل والبحث عن الحقيقة هو دافعهم الأول في الحياة.

إن التساؤل يفتح الأبواب المغلقة على مصراعيها ليدخل شعاع النور ويمحو الأفكار السوداء في العقول المظلمة، وما أن

ينبثق ذلك النور في أرجائنا حتى يعم الضوء كل شيء... إلى الأبد.

عندما تساءل هيغل وسقراط وصلا إلى حقيقة واحدة، وهي أن الفضيلة صفة مطلقة وليست نسبية، أي أن الفضيلة لا تختلف من شخص إلى آخر، بشرط أن يتجرد الإنسان من المادة، ويجعل الوعي والمنطق الركيزتين الرئيستين في حياته، وبذلك توصل سقراط إلى أن الإله واحد وليس آلهة متعددة كما كان الأثينيون يقولون.

عندما وقف سقراط مدافعاً عن نفسه في تلك المحاكمة التاريخية التي انتهت بإعدامه، قال لقضاته: «كنت أفتش عن الحقيقة، أبحث عنها كما يبحث الجائع عن طعام، ليحفظ عليه حياته، وليمدّه بالغذاء والقوة. ولم أستطع أن أقبل المشكلات من غير مناقشتها، فلقد كنت في حاجة لكي أرضي ذلك النداء الملح الذي يريد من كل إنسان أن يجتهد للوصول إلى الحقيقة كاملة، وها أنا ذا، لا يهمني أن أكون مثلكم لا أملك شيئاً من علم، ولكنني لا أريد أن أعاني ما تعانون من جهل».

الذكريات في حضرة الموت

يؤرقني ذكر الموت كثيراً. حاولت أن أقنع نفسي بأن جميع الناس يمرّون بالحالة نفسها عندما يذكرونه، ولكنني اكتشفت بأن فكرة الفراق، وليس الموت بالتحديد، هي التي تقضّ مضجعي بين الحين والآخر. فالموت يبقى بالنسبة للأحياء أسطورة حقيقية، فالإنسان لا يعرف كنهه حتى يذوقه، ولكنه عندها لا يعود له معنى، فلقد حصل وانتهى الأمر.

أما الفراق، فيمرّ به الإنسان مرات عديدة في حياته، سواء كان ذلك عندما يفارق أهله وأحبابه لسفر ما، أو حتى عندما يفقد عزيزاً غيّبه الموت. إن طعم الفراق لاذع، ولا يكاد يوجد إنسان على وجه الأرض إلا وتجرّع مرارته، ولذلك فإن البشر عادة يتجنّبون ساعات الفراق حتى وإن قصرت، ويتمنون حينها أن يعدلوا عن وجهتهم حتى يضعوا حدّاً للمأساة الإنسانية «المؤقتة» التي يمرّون بها خلال لحظات الفراق.

إن فكرة مفارقة الأهل والأحباب، العمل والأصدقاء، القلم والكتاب، الأحلام والآمال، المفاجآت واللقاءات... فكرة ترعب

الإنسان كلّما عنّ له ذكرها. وعندما نفارق الشيء فإننا نحمل معنا جزءاً منه ظناً منا بأن ذلك سيعيننا على لأواء فراقه وسيخفف عنا حزن الابتعاد عنه، ولكنّه في الحقيقة يبقينا حبيسي الذكريات التي ما أن تتجدد خواطرها في قلوبنا حتى تحملنا على بساط الأسى لتذيقنا مرارات الحياة التي نسعى جاهدين طوال حياتنا لتجنّبها.

يحب الإنسان الذكريات بطبيعته، فنرى بعض الناس يحتفظون بصور أحبابهم معهم أينما رحلوا، وهناك من يدوّن يوميّاته حتى تعود به، كلّما اختلس النظر إليها، إلى أيامه الجميلة. هذا ما نعتقده، ولكننا في الحقيقة نحب أن نأسر أنفسنا في سجن الذكريات، فالذكرى مهما كانت جميلة، فإنها تطوّح بنا في نهايتها وترمي في قلوبنا ببعض الأسى الذي نعشقه لأسباب لا نعرفها.

الوقت عدوّ الإنسان اللدود، وعلى الرغم من استيعابنا لهذه الحقيقة إلا أننا لا ننفك ننظر إلى الساعة في كل حين، بل يتفاخر الكثير منا برتابة جدوله اليومي حتى يستطيع أن يستغل وقته بالصورة المثلى. لم نفكّر يوماً في ترك الوقت جانباً والعيش لبعض الوقت دون الرجوع إليه. يتذمر الإنسان ويقول بأن الحياة قصيرة، هل حقاً قصيرة هي الحياة؟ أم أن شغفنا بمقاومة الوقت هو الذي يضيع حياتنا في معركة لن نكسبها وإن طال

الزمن! أفكر كثيراً في الإنسان الأول، عندما كان الوقت بالنسبة له شيئاً مجهولاً تماماً مثل النار.

كيف كان البشر يقضون أوقاتهم حينها؟ هل كانوا يخشون مرور الأيام أمام ناظريهم دون أن يوزّعوا نشاطاتهم بطريقة تضمن لهم استغلالها بطريقة صحيحة؟ أم أنّهم كانوا يعيشونها كيفما جاءت ولا يودّعونها كيفما رحلت؟

ما هو تعريف الذكريات؟ وهل ترتبط دائماً بالمشاعر أم أن كل شيء علق بأذهاننا يمكننا أن نطلق عليه كلمة ذكرى؟ كيف يمكننا أن نختار من الذكريات ما يبقى في أذهاننا وما يمحى؟ قد تكون الذكريات إحدى أدبيات الحياة الإجبارية، التي لا شأن للإنسان في صياغتها، فهي تختزن في عقله رغماً عنه، وتعنّ له هواجسها في أوقات قد لا يكون في حاجة إليها.

لا يمكن للإنسان أن يقاوم الذكريات، تماماً مثلما لا يمكنه أن يقاوم عدم قراءة نص تقع عليه عيناه. حاول أن تنظر إلى نص مكتوب بلغتك الأم ولا تقرأه، أراهنك بأنك لن تستطيع ذلك. هناك أمور في حياتنا ليس لنا في رفضها أو قبولها خيار، وكل ما يمكننا فعله في تلك المواقف هو أن نختار بينها، لا أن نحاول منعها.

إن خوفنا من الفراق هو خوف من أشباح الذكريات التي قد تظل تطاردنا طالما نحن في رحلة الغياب، لذلك فإننا نحاول أن

نحمل معنا بعض الصور والعطور وأشياء أخرى لنجبر عقولنا على سلك منحى معيّن لذكرياتنا، ولكننا في الحقيقة نقع فريسة لها فتذرف مآقينا دموعاً لا نستطيع أن ننكر، حتى وهي تؤلمنا، بأنها تريحنا في بعض الأوقات.

ولكن، هل من ذكريات بعد الموت؟ لا أعرف إجابة عن هذا السؤال، ولكنني أظن بأننا بعد الموت لا نخشى من أن تطاردنا الذكريات، ولكننا نخشى على أحبائنا من أن تؤلمهم ذكرى فراقنا، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نتقبل فكرة الموت حتى وإن كان إيماننا كبيراً جداً.

يحاول كثير من الناس أن يخلّدوا أسماءهم في الدنيا، ولا أعلم لماذا يفعلون ذلك وهم يعلمون تماماً بأن ذلك لن ينفعهم بعد موتهم. لربما أراد هؤلاء أن يقولوا لنا بأن الموت هو إحدى الذكريات أيضاً، التي يجب أن لا تنسيهم أنّهم كانوا يوماً رجالاً عظاماً.

لماذا يخاف الإنسان على أطفاله إذا علم وهو في سنّ مبكرة بأنه ميت لا محالة بسبب مرض عضال؟ ولماذا يحزن لفكرة فراقهم وهو يعلم بأنهم سيلحقونه ولكن بعد مدة؟ هل يتمنى بعض الناس أن يموت جميع أحبابه معه في نفس اللحظة حتى لا يتألّم أحدهم لفراق الآخر؟ نقرأ في القصص دائماً عن تضحيات قام بها أب أو أم من أجل أن يعيش أطفالهم، أوليس

من الأفضل لهم أن يموتوا جميعاً حتى يبقوا في كنف العائلة حتى بعد الموت؟

إنّه الخوف من الذكريات ولا شك، والخوف من المجهول أيضاً. فالجهل بما يحدث بعد الموت يخيف الإنسان ويجعله يتمنى لأحبابه أن يبقوا أحياء على الأرض على الرغم مما فيها من آلام ومخاطر، ولكنه على الأقل يعلم ما سيمرّون به وما سيواجهونه من مصاعب وآلام، أما الموت فقد يكون مؤلماً جداً لهم، لذلك فإنه لا يريد لمن يحب أن يتجرّع تلك المرارة.

إن موت الإنسان جزء من حياته، حتى وإن كان ذلك هو الجزء الأخير منها، فإنه لا يلغي حقيقة أنه واقع ملموس، لا يشعر به الإنسان إلا بعد نهايته. والذكريات فقط هي التي تجعل من الموت فكرة مخيفة، ولو استطاع الإنسان أن يعيش من دونها فلربما تقبّل الموت بشكل أفضل. ولكن بوجود الوقت ماثلاً أمام المرء في كل حركاته وسكناته، ستبقى الذكريات تؤرّقه حتى يريحه الموت منها. باختصار: ليست المشكلة في أن نموت، ولكن المشكلة في ألا نعيش.

ماذا لو نسينا تواريخ ميلادنا؟

في جلسة شبابية، كنا نتحدث عن التقدم في السنّ، فقال لنا أحد الموجودين إنّه لا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد، وقال أيضاً إن معظم أترابه المولودين في قريته الصغيرة لم تدوَّن تواريخ ميلادهم، حيث اعتمد الأهالي في تقريب تواريخ الميلاد على ربطها بأحداث شهيرة في تلك الفترة.

تساءلت عندها، ماذا لو لم نكن نعلم تواريخ ميلادنا؟ فقال أحد الحضور إن ذلك سيرفع الحرج عن كبار السن، وخصوصاً النساء اللائي تتوقف أعمارهن عادة عند التاسعة والعشرين. أما زميلي الآخر فقد رأى بأن ذلك قد يؤدي إلى فوضى أحياناً، وأظنه كان يعني وقت دخول الإنسان المدرسة أو عند شرائه الدواء من الصيدلية.

أظن أننا لو نسينا تواريخ ميلادنا فإن حياتنا ستكون أفضل، فعلى الأقل لن نعدّ الأيام والشهور كما نفعل اليوم، وبالتالي، سيقل الطلب على مساحيق التجميل وستفقد عمليات التجميل شيئاً من لمعانها. ولو نسينا تواريخ ميلادنا فإن السنّ لن تكون أحد

معايير التوظيف والترقية في العمل، ولن تقتصر المناصب العليا على من هم فوق سن معيّنة، وسيكون الإبداع والإنتاج الجيد هما المعياران الرئيسيان لكل من أراد أن يتقلّد منصباً رفيعاً.

لو نسينا تواريخ ميلادنا فسينتهي التنجيم، وستتوقف صفحات الأبراج والحظ في صحفنا ومجلاتنا العربية. ولن يتمكن قارئوا الفناجين وضاربوا الودع من معرفة المستقبل لأنّهم يجهلون الحاضر، وسيتم استبدال صفحات الأبراج بأشياء مفيدة وأكثر جدية للقارئ العربي. ولو نسينا تواريخ ميلادنا فلن تلاحقنا أخبار حفلات أعياد ميلاد النجوم والفنانين والمشاهير. وستكون ميزانياتنا أكثر استقراراً حيث إننا لن نضطر أن نشتري هدية في عيد ميلاد قريب أو صديق في كل شهر.

لو نسينا تواريخ ميلادنا فسيزيد إيماننا، لأننا عندها لن نربط الموت بتقدم العمر، وسنكون مستعدين له في أي وقت. وعندما يزيد الإيمان في قلوبنا فإننا سنرتقي إلى الحرية، لأننا عندها لن نحتاج إلى البشر كثيراً.

إن الحرية لا تهبط إلى مستوى الشعوب، بل على الشعوب أن ترتقي إلى الحرية. إننا نسعى دائماً للحصول على المال في أسرع وقت حتى نستمتع به قبل سنّ معيّنة، ونخشى أن نصل إلى سنّ متأخرة دون أن تكون حساباتنا البنكية ملأى بالأموال الطائلة. ولو أننا نسينا تواريخ ميلادنا فإن المال لن يصبح ذا قيمة كبيرة

كما هو اليوم، وستكون الأعمال العظيمة وحدها التي تحدد مكانتنا في المجتمع، فكلّما عظمت أعمالنا كلّما تكمّلنا بالوقار والهيبة اللذين سيكتسبهما الشاب عندها بإنجازه عوضاً عن أن يكتسبهما الطاعن في السن الذي ـ في كثير من الحالات ـ لا شأن له فيها إلا كبر سنّه.

وحينها، لن ترتبط الحكمة بتقدم السنّ، ولكن بالقول السديد والعمل الشريف. ولن ترتبط الحكمة أيضاً بكثرة التجارب، بل ستكون كما قال برنارد شو: «يكتسب الرجال الحكمة لا بسعة تجاربهم، بل بقدرتهم على التجربة».

لو نسينا تواريخ ميلادنا فلن تكون هناك سنّ معيّنة للتقاعد، وسيكون الأمر راجعاً للإنسان لا لقوانين العمل، وسيظل المبدع يقدم ما بوسعه كل يوم حتى يأتي اليوم الذي يقف فيه عن الإنتاج، ولكن باختياره لا باختيار الآخرين.

ليس للإبداع سنّ معينة، فكم من روائي وعالم ومفكر بدأوا حياتهم الإبداعية فوق سن الأربعين والخمسين والستّين، فالسنّ خرافة قيّد الإنسان نفسه بها عندما تناقلها من جيل إلى جيل واعتقد بصحّتها.

لو نسينا تواريخ ميلادنا فسنبقى طموحين حتى آخر لحظة في حياتنا، فلن يرتبط الطموح بالشباب فقط، بل سيكون لصيقاً بالأمل الذي كلّما اتّسعت آفاقه في قلب الإنسان كلّما عاش

سعيداً. إن الأمل والأجل يمشيان في خطين متوازيين لا يلتقيان أبداً، فكلّما اقترب الإنسان من أحدهما ابتعد عن الآخر.

في كل مرة يقرأ الإنسان فيها تاريخ ميلاده في جواز سفره يقل مخزون الأمل في قلبه، ويبدأ خط سيره ينحى تجاه أجله، نعلم أن الأجل حقيقة لابد منها، ولكن الأمل الحقيقي يجعل الأجل بسيطاً ويحوله من فكرة النهاية، إلى فكرة البداية الجديدة.

لو نسينا تواريخ ميلادنا فسنتمتع بصحة أفضل، فمعظم أمراضنا مصدرها العقل لا الجسد، وعندما يعد الإنسان سنين عمره يقوم العقل تبعاً لذلك بإجبار الجسد ليبدأ الانهيار التدريجي حتى يتماشى مع كل مرحلة سنيّة يمر فيها الإنسان. وما أن يتذكر الإنسان أنه قد وصل إلى سنٍّ متأخرة حتى يبدأ جسده باصطناع المرض لكي يشعر بأنه إنسان طبيعي يعيش شيخوخته كباقي البشر!

لننسَ تواريخ ميلادنا قليلاً ولنُسخّر حياتنا، طالت أم قصرت، لعمل أي شيء يعيش أطول من حياتنا نفسها ويبقى بعد أن نرحل، فذلك أفضل ما في الحياة.

القلم الأحمر

قرأت مرة مقولة جميلة تقول: «القائد الجيد يلهم الناس ليثقوا به، أما القائد العظيم، فإنه يلهم الناس ليثقوا بأنفسهم». ليس بالضرورة أن يكون القائد قائداً عسكرياً أو قائد دولة، بل قد يكون قائد حافلة، أو مدير شركة، أو مدرساً في مدرسة ابتدائية، أو موظفاً حكومياً... المهم أنه يؤثر في الناس بطريقة أو بأخرى.

عندما كنّا صغاراً، كنا نخشى في المدرسة من شيئين، الأول هو الضرب، والثاني هو القلم الأحمر. وليت الأساتذة استعاضوا بالضرب عن اللون الأحمر، فهذا الأخير، ما زال يؤرقنا حتى يومنا الحاضر. كانت أصعب لحظات الطالب في المدرسة هي تلك التي يقضيها في طابور تصحيح الواجب، ذلك الطابور القصير طولاً، الطويل زمناً.

كنّا نقف على وجل، ندعو الله ألا يكون مصيرنا كمصير ذلك الطالب الذي شُوِّهت كراسته باللون الأحمر. نضع الكراسة أمام المدرس ثم نبدأ بالكلام عن أشياء عديدة لتشتيت انتباهه، وإذا

به يستلّ سيفه من جيبه، ويُعْمِلَه، ليس في الدفتر فقط، ولكن في أحلامنا وطموحاتنا، في ثقتنا بأنفسنا، في مستقبلنا، وفي عواطفنا ومشاعرنا. وكلّما طعن بسيفه الأحمر كلمة هنا، صرخ رقم هناك، وإذا به يتلقى ضربة لتودي بحياته هو الآخر.

كان المدرّسون في المدرسة يبحثون عن الخطأ، أو عن النصف الفارغ من الكأس، حتى وإن كان هذا الفراغ يمثل الثلث أو الربع فقط، فإنهم لا ينظرون إلى الجزء الممتلئ أبداً، وكان كل همّهم هو إسالة الدماء (الحمراء) إلى الركب.

يعتبر اللون الأحمر هو لون الحروب، وعند البعض، هو لون القوة والعنف، كما يصور البعض الشيطان على أنّه أحمر. وعند البعض أيضاً، يُعتبر اللون الأحمر هو لون الحب، ولون الأنوثة، وكانت الناس تتغزل في المرأة التي يتورّد خداها، أي يتحولان إلى اللون الأحمر أو الوردي.

يرتدي كثير من رجال الأعمال ربطة عنق حمراء للتعبير عن قوّتهم وإصرارهم، وفي بعض المناسبات، تُفرش لكبار الشخصيات سجّادة حمراء للتعبير عن أهميّتهم في المجتمع. أما في الإضاءة، فإن الأحمر يعتبر لون الخطر، فإشارة التوقف لونها أحمر، وسيارة الإسعاف تشعل الضوء الأحمر عندما يكون المريض في حالة خطرة.

في الصين والشرق بصورة عامة، يعتبر اللون الأحمر هو لون

البهجة والفرح، فالعروس تلبس اللون الأحمر يوم زفافها، أما في جنوب إفريقيا، فإنه لون الحِداد، وفي روسيا، فإن الأحمر قد استخدم في شعارات الثورة البلشفية، وأصبح منذ ذلك الحين لصيقاً بالشيوعية.

أعرف أحد الأشخاص الذين يخافون من استخدام القلم الأحمر، حيث يرفض أن يدخله مكتبه أو حتى بيته، وعندما سألته عن السبب، قال لي بأن القلم الأحمر يمثّل له التسلّط، فبذلك القلم البسيط، كان أستاذه يريه الويلات كل يوم، وكان كلّما استلم شهادته، يرى بها دوائر حمراء، ودائماً ما كان يتساءل، لماذا لم تكن زرقاء أو خضراء! فقلت له ربما لأن الأحمر أكثر وضوحاً، فقال لي: «بل لأنّه أكثر دموية».

نشأنا ونحن نحب ذلك القلم ونكرهه في نفس الوقت، وكنّا نسعى للحصول على نجمة حمراء أو اثنتين في كراسة الواجب حتى نريها لكل من في البيت. وعلى الرغم من أن بعضنا كان متأكداً من أنه قد حلّ الواجب بطريقة سليمة، إلا أن كل شيء كان يعتمد على مزاج المدرّس ولا شيء آخر.

لم يفكّر أحدنا يوماً أن يناقش المدرس في قلمه الأحمر، بل إننا لم نفكّر يوماً أن المدرس قد يكون على خطأ ونحن على صواب. لم تكن الحقيقة همّنا، وكنّا نسعى في المدرسة من أجل إرضاء المدرس وليس فهم الدرس. طلب منّي أحد المدرسين

مرة أن أكذب ففعلت دون أن أتردد، وما كان منه إلا أن ضربني بعصاه «الحمراء» معلّلا ذلك بأنه كان يريد أن يختبرني فقط، وكان علي أن أرفض قول الكذب، ولكنني كنت أقسم لزملائي بأنني لو رفضت طلبه لضربني أيضاً.

كان القلم الأحمر مصدر تشويش نفسي لنا كطلبة، فبجرّة منه كنّا نرتفع، وبأخرى كنا نسقط. أحد أساتذتي كان يعلّق ثلاثة أقلام في جيبه العلوي، كلّها حمراء، وعندما يريد أن يستخدم لوناً آخر، كان يستعيره أو بالأحرى ينتزعه من أحد الطلبة.

في الأفلام والمسلسلات، عندما تغضب الحكومة فإنها تغلق دكّان فلان بالشمع الأحمر، ومازلنا نسمع حتى اليوم بأنه علينا ألا نتجاوز الخطوط الحمراء. لا بد وأن يكون كل خطر أحمر مصدره ذلك القلم المقيت، الذي لا يزال مداده يضخ في عالمنا العربي في كل صغيرة وكبيرة، فالذين يُغضِبون المدرّس تفجّرهم الألغام المدسوسة بعد الخط الأحمر مباشرة، والذين يُرضُونه تُفرش لهم السجادة الحمراء، ويقضون ليالٍ حمراء إلى الأبد.

أقترح أن نقاطع اللون الأحمر، ونستعيض عنه بالأخضر، فالأخضر هو لون السلام، ولون العشب، ونجده في معظم شعارات «أيرلندا» ذات الطبيعة الخلّابة. والأخضر أيضاً هو لون راية الإسلام، وهو يرمز إلى الربيع دائماً. ولكي نفعل ذلك، فإنني أقترح أن تعلن وزارات التربية والتعليم في جميع أنحاء الوطن

العربي منع استخدام الأقلام الحمراء، واستخدام الأقلام الخضراء بدلاً منها، علّنا نوجد جيلاً عربياً جديداً يحب المدرِّس، ويعمل معه لا من أجله.

جسر التّنهُدات

كنت أتحدث مع صديقي عبر الهاتف، فسألته إن كان مصاباً بالزكام، حيث كان صوته حزيناً، فقال لي بأن صوته تغيّر منذ فترة بسبب قلة النوم. قلت له بأن طبيباً صينياً قال لي مرة: «النوم مثل الدَّيْن، كلما أخذت منه، كلّما ثقلت الحياة واسودّت في وجهك. وإذا لم تسدد هذا الدَّيْن في أسرع وقت، فإن شيئاً سيئاً سيحلّ بك لا محالة». لم يملك صديقي إلا تأييدي في ما قلت، وزاد بأن أخبرني أنه عاد قبل أيام من رحلة عمل في دولة أوروبية، وكانت اجتماعاته تمتد حتى الساعة الخامسة مساءً، أي إلى انتهاء وقت العمل الرسمي. عندها، يحمل الجميع حاجاته وينصرف إلى البيت.

في أول الأيام كان يتّصل بشركائه بعد الساعة الخامسة لاستيضاح بعض النقاط التي غابت عنه في الاجتماع. في بادئ الأمر تقبّلوا اتصالاته، ولكن بعد يومين قال له أحدهم بأنه لا يأبه به أو بعمله، فلديه يوم عمل كامل، من التاسعة وحتى الخامسة ليقول ما يريد، أما ما بعد ذلك فهو وقت الراحة.

قلت له بأننا تطبّعنا بطبع الآلة، فأصبحنا نعمل طالما أن هناك بنزينا، وما لم يوقفنا النوم فإننا سنظل نعمل على مدار الساعة حتى انتهاء تاريخ صلاحيتنا. كلّما أرى شخصاً يعمل بهذه الطريقة، وأنا واحد من أولئك، أتذكر محل «إيكيا» للأثاث الذي يعرض آلات في غرف زجاجية، تضغط على كرسي أو تفتح باب دولاب باستمرار طوال اليوم لإقناع الزبائن بمتانة البضاعة. كنّا نعمل من أجل التنمية، ثم من أجل الإنجاز، واليوم، فإننا نعمل من أجل العمل فقط. وكلّما سوّلت لنا أنفسنا أخذ قسط من الراحة، نتذكّر قول شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ونسينا أنه قال أيضاً:

دقّاتُ قلبِ المرءِ قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

أتساءل دائماً، هل على المرء أن يستميت في عمله ويضحّي بوقته ووقت عائلته وأصدقائه، ويضرب بصحّته عرض الحائط، لكي يكون إنساناً ناجحاً ومميّزاً؟ أليست التنمية التي نسعى لها ونتغنّى بمفرداتها هي من أجل الإنسان؟ أي من أجلنا نحن، وليست من أجل الأسماك أو الحيوانات؟ أم أنها تنمية من أجل التنمية فقط، ولا ناقة للإنسان فيها ولا جمل؟

نقرأ كثيراً عن ثورة الاتصالات، ونذكر كلمة (ثورة)

بإيجابية، ونغفل الجانب السلبي لها والمتمثل في بقائنا على اتصال دائماً. نجلس في البيت والهاتف النقّال إلى جانبنا. نذهب إلى المسجد والهاتف في جيوبنا. الهاتف يرنّ في السيارة فنهرع للردّ عليه. وفي العمل، يعتبر الهاتف قريناً للتنمية، أو بالأحرى، قريناً للعبودية التي لا أعرف كيف أوصلنا لها هذا الجهاز الصغير.

يخاف أحدنا أن يمارس رياضة المشي على البحر دون أن يكون الهاتف معلقاً في خصره وسمّاعته تئنّ في أذنه. وإذا اتصل بنا أحد ولم نرد عليه، فإن أول شيء نقدمه عندما نتصل به هو الاعتذار عن التأخير، وكأننا ملزمون بالردّ على أي شخص في أي وقت.

عندما يسمع أحدنا عن صديق أو قريب أصيب بمرض عضال، كالسرطان مثلاً، فإن الدنيا كلّها تتوقف أمام عينيه لثوانٍ معدودة. يراجع فيها، دون أن يشعر، كل حساباته التي تظهر له في النهاية بالسالب. يضع نفسه مكان ذلك المريض، فيقول: «لو كنت مكانه لبكيت على نفسي أشد البكاء. فما قيمة كل ما أبذله من جهد أمام حياة خالية من العاطفة، خاوية من الشعور؟ لم أرَ أمي منذ عدة أشهر. لم أقض يوماً كاملاً مع أطفالي منذ سنوات... حتى زوجتي أصبحت جزءاً من أثاث البيت». عندما نسمع خبراً سيئاً كهذا يتهاوى كل عمل قمنا به أمام أعيننا، لأننا

تركنا الأهم إلى المهم، وللأسف، فإن أكثرنا يعود إلى نفس الدوامة بعد أيام قليلة.

حتى قراءاتنا أصبحت أغلبها صلبة، جامدة، فنحن نقرأ عن العولمة، والسياسة، والإدارة، وغيرها حتى نصير كتلة فكرية جامدة تسير على الأرض. كم منّا قرأ ديوان ابن زيدون؟ أو «طوق الحمامة» لابن حزم؟ أو رواية «توم سوير» لمارك توين؟ أو مسرحية «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم؟

وكم منا يشعر بتأنيب الضمير عندما يقرأ هذه الكتب لأنه يضيع وقته سدى في كتب «ليست جادة» كما قال لي أحد الأصدقاء. أما إذا ما طُرح كتاب مثل «كفاحي» لهتلر فإن الجميع يهرع ليقرأه أو يعلّق قصاصات منه على طاولة مكتبه!

في عطلة نهاية الأسبوع، نتّجه إلى الأسواق لنرفّه عن أنفسنا. الأسواق التي يملأها الصخب، والأضواء الساطعة، والأنفاس المتسارعة للوصول إلى نهاية العالم! إننا نضيع في الأسواق أجمل أيام حياتنا، وأوقات راحتنا لنعبر طوفاناً بشرياً، فنصطدم بهذا، وندفع بذاك حتى نصل إلى كرسينا المفضل في مقهى يزيد فيه الناس عن الكراسي، لنشرب فنجان قهوة أكثر مرارة من الحياة التي نعيشها. كم واحد منا لديه هواية أو رياضة يمارسها بانتظام، كل أسبوع، مرة واحدة على الأقل؟

يقول أبو الفتح البستي:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
لتَطلُبَ الرِّبح في ما فيه خُسرانُ
أَقبِلْ على النفس فاستَكْمِل فضائلَها
فأنتَ بالنفس لا بالجسمِ إنساناً

في عام 1600 بُنيَ في مدينة فينيسيا الإيطالية (أو البندقية) جسر يربط بين قصر «دوتشي» الذي كان مقرّاً لحكومة المدينة، والذي به تقع قاعة المحكمة، وبين السجن القديم. وعبر هذا الجسر كان السجناء يُنقلون من قاعة المحكمة إلى السجن بعد صدور الحكم عليهم.

وتقول الحكايات في فينيسيا، إن السجناء كانوا يطلبون من السجّانين أن يسمحوا لهم بالوقوف على الجسر لبضع دقائق ليلقوا آخر نظرة على المدينة الساحرة، وكانوا في تلك الدقائق القصيرة يتنهّدون قبل أن يُجَرّوا إلى سجن مظلم لسنوات طويلة، وأحياناً إلى آخر العُمر، فسمّي «جسر التنهدات».

كلّنا في حاجة إلى جسر خاص به، ليلقي من فوقه نظرة على جمال الحياة، وروعة الدنيا. جسر نلتقط من فوقه أنفاسنا، ونتنهد منه مرة واحدة في الأسبوع لأنها قد تكون المرة الأخيرة. ليكن جسرك هو بيتك، أو حديقتك، أو كتابك، أو فنجان قهوتك الصباحي، أو كرسي صغير مطل على البحر، أو كثيّب رمل تراجع

من على قمّته حياتك، أو تشاهد الأفق... لا تهم ماهيّة الجسر أو مكانه أو حتى توقيته، المهم هو ألا تمرّ عليه دون أن تعرف ماذا ستقول للقاضي إذا ما وقفت بين يديه يوما.

ما أسعد البسطاء

عندما بحثت عن معنى التفاؤل، وجدتُ أن الطريق المؤدية إليه هي البساطة، ولا أعني بها سطحية التفكير، ولكن البساطة في التعاطي مع الحياة من حولنا، فعندما يستطيع الإنسان أن يحقق البساطة في حياته، فإن ذلك سيعينه على ترك القلق، حتى ولو لسويعات قليلة.

لا شك أن الناس أجناس مختلفة، ولكل واحد منهم أطباعه التي تميّزه عن الآخر، فهناك من يحب أن يضع كل شيء في مكانه الصحيح، وهناك من يشكّل الوقت في حياته هاجساً كبيراً فتجده ملتزماً به إلى أبعد الحدود، وهناك الفوضويون الذين لا يهمّهم ما يجري في العالم من أحداث طالما أنهم جزء من أي فوضى تمر بهم، وهناك البليدون الذين لا يشعرون بصخب الحياة من حولهم... إلى آخر ذلك من صفات البشر.

أما البسطاء فعلى الرغم من أن أكثرهم لا يملك من متاع الحياة شيئاً، إلا أنه يبقى مثاراً للحسد بين أفراد المجتمع. فالبسطاء لا يهمهم الوقت، ولا تهمهم الفوضى، وحتى النظام يعد

في عرفهم «شيئاً» من أشياء الحياة الكبيرة الممتدة أمامهم.

والبسطاء لا يغضبون كثيراً، ولا يفرحون كثيراً أيضاً، فمهمتهم في هذه الحياة هي أن يقوموا بواجباتهم على قدر طاقتهم، ثم يستمتعوا بجمالياتها ويتفاعلوا مع معطيتها أياً كانت، ثم يرحلوا عنها في سلام. لا يحب البسطاء الأضواء، ولا يشعرون بالحاجة إليها، فالضوء المنبعث في داخلهم يكفيهم، ويشعرهم بأنهم أهم من يعيش على الكرة الأرضية دون أن يصيبهم ذلك بداء الغرور.

والبسطاء أيضاً ليسوا في حاجة ماسة إلى المال، فعلى الرغم من أن غالبيتهم لا تمتلكه، إلا أن حبهم له نابع من غريزتهم البشرية وليس من غريزتهم الحيوانية.

البسطاء عادة متفائلون، يرون الحياة بمنظار مختلف، لا يعرفه المعقدون والمسؤولون والأغنياء والمفكرون وغيرهم إلا عندما يتناولون أدويتهم النفسية، التي أكّد لهم الطبيب مراراً أنها لفترة مؤقتة فقط، ولا تلبث السنون أن تمضي حتى تتحول أمراضهم النفسية إلى أطباع راسخة في شخصياتهم. إن البسطاء يرون الجمال في كل شيء، حتى في القبح، يرونه على أنه ذوق آخر من الجمال يناسب غيرهم من الناس.

إن التفاؤل صفة ملازمة للبسطاء، فحتى عندما يدخلون المستشفى للعلاج، فإنهم يحمدون الله ألف مرة على وجود

مستشفى في المكان الذي يعيشون فيه، ثم يحمدونه ألف مرة أخرى عندما يخرجون منه ليعودوا إلى حياتهم الطبيعية، حتى وإن كان ذلك بمرض مزمن.

ولأنهم متفائلون فإنهم يعمّرون طويلاً، فكل ما يشغل الناس لا يشغلهم، فلا هم مهتمون بنشرات الأخبار، ولا هم مهووسون بأسعار العملات والأسهم، ولذلك، تراهم يضحكون عندما يبكي الناس، ويفرحون حتى عندما يحزن الناس.

فالبسطاء لا ينظرون إلى الأشياء من حولهم نظرة المتملّك، ولكنهم ينظرون إليها بنظرة المستمتع. الفرق بينهما، أن المتملك يرى أن السيارة الفارهة على سبيل المثال يجب أن تكون من حقّه، فتجده يقضي حياته ساعياً للحصول عليها، أما المستمتع، فإنه يشعر بنشوة كلما مرت تلك السيارة من أمامه، فيصفها لأصدقائه وأسرته وكأنها سيارته هو دون أن يشعر بوخزة في صدره تجاه من يملك تلك السيارة.

البسطاء لا يخافون من العين دائماً، ولا يستنكفون عن مدح الأشياء من حولهم والحديث عما يملكه غيرهم بإعجاب وسعادة، فهم معفيون من ضريبة الغيرة والحسد، وما في قلوبهم يترقرق على ألسنتهم دون أن يمنعه حاجز الكبرياء.

البسطاء بشر مثلنا، يحلمون ويفرحون وينجحون ويفشلون ويحزنون، ولكنهم لا يقفون عند منعطفات الحياة هذه التي يقف

عندها معظم البشر. فأحلامهم تتناسب مع حياتهم، أما طموحتهم، فإنها لا تتعارض مع طموحات الآخرين، وبالتالي، فإنهم يفرحون إذا ما حققوا تلك الأحلام أو إذا ما حققها أحد آخر غيرهم، فهم يؤمنون بأن الأرزاق والفرص موزعة بين الناس بالتساوي.

أما الفرحة لديهم فإنها طبيعة بشرية، جُبلوا عليها ونشأوا على التعاطي معها في كل يوم، وأي شيء غير الفرح يعتبرونه حالة شاذة، تمرّ على حياتهم ولكنها لا تعصف بها.

البسطاء يرون البساطة في كل شيء، فحتى التكنولوجيا التي تطفى عليها صفة التعقيد، يجدونها قد بسّطت التواصل بين البشر وجعلتهم أكثر قرباً من أحبائهم. والبسطاء يتعاطون مع الحياة كما هي، دون أن يضيفوا عليها تعقيدات البشر وتدخلاتهم التي تفسد حلاوتها وتحيلها إلى ساحة معركة، ويكفيهم في المدة القصيرة التي يقضونها في هذه الدنيا، أن يضفوا جواً من السعادة والفرح على من حولهم، حتى في أحلك ساعات الظلام والحزن فإنهم يشكرون الله لأنه أمدهم بالصحة والعافية... ويشكرونه أيضاً لأنه منحهم الفرصة كي يعيشوا على وجه الأرض.

ونجهل فوق جهل الجاهلينا

قبل أن تقلع الطائرة، مرّت المضيفة لتتأكد من أن جميع أحزمة الأمان مربوطة. وما إن استوت الطائرة على المدرج، وأعلن قائد الطائرة أنها سوف تقلع، حتى قام زميلي بفك حزام الأمان ومد رجليه. سألته عن السبب فقال لي: «وهل تصدق هذه الترّهات. لو تعرضنا إلى حادث فلن يفيدنا الحزام» فقلت له: «وهل تعتقد أن الذين وضعوا قانون ربط حزام الأمان وقت الإقلاع والهبوط فعلوا ذلك تنغيصاً (أو غلاسة) على المسافرين؟» فما كان منه إلا أن أعاد ربط حزامه وبدأ يفكّر بالأمر.

كلّما ركبت السيّارة مع أحد الأصدقاء أراه يستنكف عن ربط حزام الأمان، وإذا أراد أن يستدير بسيارته، فإنه لا يستخدم الإشارات المخصصة لذلك، بل يفاجئ السائقين الآخرين بهجوم مباغت ويجبرهم على التقهقر إلى مواقعهم لكي يتمكن هو من الاستدارة.

وعندما ينزل أحدهم من سيارته، فإنه يستنكف أيضاً عن

استخدام الإشارات الأربع التي تشير إلى أن وقوفه مؤقت. حتى وهو يقف في مكان ممنوع الوقوف فيه، لأنه يرى أنه من حقه عدم استخدام الإشارات، وعلى الآخرين أن يفهموا بأنه وقف هنا مؤقتاً!

قد تبدو هذه المظاهر سطحية ولا أهمية لها، ولكنها في الحقيقة حالة اجتماعية، وانعكاس لمفاهيم مجتمعية معيّنة، تنم عن مدى ثقافة أفراد مجتمع ما ومدى نضجهم الفكري. إن معظم المجتمعات العربية تنظر إلى القوانين والأنظمة على أنها أمور وضعت لمصلحة الحكومة وليس لمصلحتها، ولأن بعض تلك الشعوب ترى بَوناً شاسعاً بينها وبين الحكومة، فإنها تصنّف نفسها دائماً في معسكر مناوئ للحكومة وإن كان بالطرق السلمية، أو بأضعف الإيمان. وفي المقابل، يلتزم العربي بالقانون ـ إلى حد ما ـ إذا ما سافر إلى إحدى الدول الشرقية أو الغربية، التي تحترم القانون وتطبّقه بصرامة. وبدون فعل ذلك، فإنه يتسبب بفوضى ـ وإن كانت بسيطة ـ من حوله قد تعرضه للمحاسبة أو على الأقل لنظرات أقسى من الحجر يرمقه بها الناس.

إن استهتارنا بالقانون له جذوره وأسبابه، حيث يذكر «نوبواكي نوتوهارا» في كتابه «العرب، وجهة نظر يابانية» أنه زار صديقاً له في إحدى الدول العربية. وفي الطريق كانت الشوارع مليئة بالقاذورات التي لم يخلُ منها مدخل البناية التي يسكن بها

صديقه. وعندما دخل شقّة صديقه بدا له الوضع مختلفاً. حيث شعر وكأنه في مدينة أخرى غير التي مرّ عليها قبل قليل، فهي نظيفة وأنيقة، وعندما حلل الوضع، وجد أن الشعب في تلك الدولة لا يشارك الحكومة أي شيء، وليس له رأي في شؤون الدولة، ولذلك، فإنه لا يشعر بانتماء تجاه بلده كالانتماء الذي يحمله تجاه شقّته. ففي شقّته له رأي، أما الشارع فيفتي في شأنه ناس آخرون، وبالتالي انعدم إحساس المسؤولية لديه، وأصبح القانون بالنسبة له وسيلة يستخدمها ناس آخرون لتحقيق مصالح معيّنة.

قد يكون هذا التحليل صحيحاً بعض الشيء، ولكنني أعتقد أن الالتزام بالقانون هو ثقافة تبنى في المجتمع على مرّ السنين. ففي بريطانيا مثلاً، لم يكن الناس قبل ستين سنة يقفون في طوابير منظمة في الأماكن العمومية كما هو الحال اليوم، فقامت الحكومة في خمسينات القرن الماضي بفرض غرامة قدرها مئة جنيه إسترليني ـ كان هذا المبلغ يعد ثروة في تلك الأيام ـ على كل من لا يقف في الطابور، وفعلاً بدأ أفراد المجتمع يلتزمون بالقانون خوفاً من العقوبة. أما اليوم، فلقد أصبح الوقوف في الطابور وانتظار الدور ثقافة في المجتمع البريطاني انتقلت لتعمّ معظم دول الغرب.

وبما أنها ثقافة، فإنها تحتاج إلى جهود مجتمعة ومنظمة للوصول إليها، والأهم من ذلك أنها تحتاج إلى «نفس طويل» من

قبل صنّاع القرار حتى يروا النتائج على أرض الواقع.

إن الالتزام بالقانون يدعو إلى الرقي بالذوق العام، وإعطاء كل ذي حق حقّه. فيصنع مجتمعاً مستقراً لا يسعى أفرادُه للقضاء على بعضهم البعض لكي يحصل كل شخص على قطعة من الكعك أكبر من الآخرين، فقطع الحلوى في المجتمعات «القانونية» مضمونة للجميع، ومقسّمة بالتساوي بينهم، اللهم إلا من بذل جهداً مضاعفاً؛ وفي إطار القانون، فإنه يحصل على قطع مضاعفة، دون أن يُحرَم غيره من الحلوى.

الالتزام بالقانون هو دليل نضوج المجتمع وبلوغه مراتب من العلم والمعرفة أهّلته ليعتلي سلّم الحضارة، وذلك ليس عيباً كما يظن بعض الشباب، وليس منقصة أو علامة ضعف، بل العيب كل العيب أن نعتقد أن حزام الأمان دليل خوف، وأن نعتقد أيضاً بأننا إن وقفنا في الطابور فإن ذلك يعني أننا أصحاب شخصيات ضعيفة لا تستطيع أن تقتحم صفوف المراجعين، وتهجم على الموظف لتحقق النصر وتنهي المعاملة. إن مخالفة القوانين جهل واتّباعها معرفة، والمأساة الحقيقية هي أن نقتنع بأن الجهل قوة، وأن المعرفة ضعف، والمأساة أيضاً تكمن عندما نقتنع بأن مخالفة القوانين رجولة واتباعها هوان... فنعود بذلك إلى أكثر من ألف وخمسمائة عام إلى الوراء لينطبق علينا قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

آخر لحظات في حياته

عاد من العمل متأخراً، دخل بيته واحتضن أطفاله، وبعد أن أودعتهم أمهم في غرفتهم عادت لتسأله عن يومه. وفي منتصف حديثهما أحس بغثيان وألم شديد في رأسه، فذهب ليتناول حبة مسكن لكي تخفف ذلك الألم المفاجئ، وإذا بزوجته تسمع ضجة في الغرفة. هرعت إليه فوجدته ملقى على الأرض مغشياً عليه.

بعد ساعات في المستشفى جاءها الطبيب منكساً رأسه وقال لها: «زوجك يعاني من سرطان في المخ»، فسقطت هي الأخرى مغشياً عليها. وعندما استيقظت وتذكرت ما مرّ بها خلال الساعات الأخيرة ظنت أنها كانت تحلم، ولكن عندما رأت «بعض» أفراد أسرتها ملتفين حول سريرها يبكون، أيقنت أن الكابوس أصبح حقيقة.

لم تستطع أن تستوعب الصدمة التي نزلت عليها مثل الصاعقة، فبالأمس كان زوجها يداعب أطفاله ويضحك معهم، وقبل أيام حجز لأسرته رحلة سياحية لقضاء الصيف، وقبل أسبوع اشترى سيارة جديدة كان يحلم بها منذ كان طفلاً... وقبل أسبوع أيضاً وعدها أن يمارس الرياضة وينتبه لنفسه.

فلقد أصابته قبل عدة أشهر حمى حادة ورمته طريحاً في الفراش لأكثر من أسبوع، وعلى الرغم من أن طبيبه لم يعرف سبب الحمى إلا أنه أكد له أنها ردّة فعل طبيعية من الجسم تجاه ضغوطات العمل التي يتعرض لها.

وبعد أن رحلت الحمى ـ غير بعيد ـ وعد زوجته أن يعمل خلال ساعات العمل فقط، وأن يأكل ثلاث وجبات في اليوم وأن يحافظ على ممارسة الرياضة كل يوم... وعدها بأن يعود إنساناً مثلما كان، فبعد أن سلبته الحياة إنسانيته ومنحته مقابل ذلك مادياتها التي لا تنتهي، انتبه إلى أنه لا يعرف كم عمر أحد أبنائه، وعندما سُئل مرة عن اسم الفصل الذي تدرس به ابنته تفاجأ بأنه لا يعرفه... بل تفاجأ أكثر عندما حاول أن يتذكر اسم مدرسة ابنته فلم يستطع.

استيقظ بعد أيام في المستشفى ورأى زوجته تبكي، وعندما أخبروه بأن حالته المرضية متأخرة جداً بكى هو أيضاً... بكى حتى ابتلّ سريره وابتلت معه ثياب زوجته التي لم تستطع أن تكفَّ عن الموت معه في كل لحظة.

أرسل الأطباء تقاريره إلى أحد المستشفيات العالمية وجاء الجواب: ليبقَ في بلده، فموته لن يتأخر. عندها صارحه الطبيب قائلاً: «أستطيع أن أخدعك وأقول لك بأن هناك أملاً، ولكن واجبي يحتم علي أن أخبرك بالحقيقة... ستدخل في غيبوبة

خلال الأسابيع المقبلة، ومن ثم ستموت لأن المرض قد استفحل في جسدك ولم تعد هناك فائدة من الأدوية... سنكتفي بالمسكنات حتى يحين الوقت، أنا متأسف»، وأشاح بوجهه وعيناه تفيض بالدموع. هو لا يعرفه، ولكنها لحظة إنسانية تجردنا من جميع أقنعة الحياة وتجبرنا على التعامل معها وكأننا أطفال كبار.

في نيوزيلندا، ورد في تقرير «مؤسسة العمّال» أن معدل إصابة الموظفين بأمراض مزمنة وخطيرة بحوالي 20000 إصابة كل عام، منها 1000 إصابة بأمراض السرطان، كسرطان الرئة والدم وغيرها، حيث يكون مصير ما نسبته 40% من هذه الحالات الوفاة، والسبب الرئيسي هو ضغط العمل.

وعلى الرغم من أن نيوزيلندا وغيرها من الدول تحاول جاهدة أن تقلل من خطر ضغوطات العمل على أبنائها، إلا أن جميع تلك الجهود تعد زوبعة في فنجان، فنمط الحياة الجديدة، السريعة المندفعة، ومتطلبات المنافسة العالمية المحتدمة ليس بين الدول والشركات فقط، بل وبين الأفراد أيضاً، فرضت نفسها كلاعب رئيسي في حياة الناس والشعوب.

إن حياتنا لم تعد ملكاً لنا، فلقد أصبحنا نعيش من أجل المستقبل، ذلك البعيد الذي قد لا نصل إليه، وإن وصلنا إليه فقد لا نراه. كل يوم يستيقظ صديقنا من نومه وهو يفكر في الموت ويتذكر جميع تفاصيل حياته. تذكر أنه لم يتبضع من

الجمعية التعاونية منذ سنوات، وحاول أن يتذكر اسم إمام المسجد الذي كان يصلي به ولكنه لم يستطع.

تذكر أنه لم يعد يرى أمه وأباه كل يوم كما جرت عليه العادة، بل إنه لم يرهما منذ ثلاثة أشهر لانشغاله بالسفر وبأعباء الوظيفة. تمنى في تلك اللحظة لو أنه يراها فيبكي عند قدميها، ليشفي غليله من الأيام التي أنسته حتى رائحة عباءتها العبقة ببخور الماضي وبطمأنينة الحاضر.

كل يوم يمر عليه يعي قيمة الأشياء من حوله، ويعي تفاهة الأشياء أيضاً. كان يتمنى أن يقود سيارة ما وها هو يحقق حلمه، ولكنه نسي أن يتمنى ألا يطغى حب الأشياء في قلبه على حب الأشخاص. كلما أراد أن يكتب وصيته يتذكر أنه ما زال في مقتبل العمر، ويتذكر الحكمة التي تقول إن موت الشباب كسفينة تتحطم وموت الشيوخ كسفينة ترسو في الميناء... وها هو جالس في غرفة مظلمة كسفينة تتحطم في الميناء... دون أن تثير موجاً أو حتى تحرك ساكناً.

تذكر مرة قول المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمِنَ العار أن تموتَ جبانا

ولكنه لا يعرف إن كان الناس سيذكرونه بعد رحيله أم أنه سينتهي جباناً كما تنتهي الشاة، وسيبقى مجرد اسم بارد كُشِطَ باللون الأحمر من دفتر العائلة والسبب «الوفاة».

تذكر أن سقراط عندما عرض عليه حارس السجن أن يهرّبه رفض وقال لأصحابه: «قولوا إنكم تواورون في التراب جسدي فقط» فكيف يتخلّى عن أفكاره وهو الذي صارع من أجلها طوال حياته لتبقى بعد مماته! وتمنى لو أنه كان ذلك الحارس على الأقل، الذي بفضل سقراط، ذكر في كتب التاريخ.

تذكر جميع مشاريعه وإنجازاته... جميع اجتماعاته وصفقاته... جميع كلماته وخطاباته، وأيقن أنه لا أحد سيتذكرها، وكل ما قد يقوله الناس: «رحمه الله»، وحتى هذه قد يحجم بعض الذين ظلمهم في العمل عن لفظها، وقد يستكثرها عليه من كان ينافسه على منصب أو صفقة.

صحيح أن الموت يفتح باب الشهرة ويغلق باب الحسد كما تقول الحكمة، ولكنها حكمة للعظماء فقط، وهو بعيد كل البعد عن العظمة، وعن الحكمة أيضاً. عرف أنه في الساعات القليلة المتبقية من عمره لن يستطيع أن يحقق شيئاً عظيماً، وبالتالي لن يستطيع أن يقول كما قال «كونفوشيوس» قبل أن يسلم وجهه: «لقد علّمت البشر كيف يعيشون»، وعلم أن نهايته لن تتوج أعماله كما قال «شكسبير»، وما زاد طينته بلّة أنه تذكر أنه سيرحل من هذه الدنيا وهو مديون لشركة السيارات.

في آخر لحظات حياته طلب من أمّه أن تكون إلى جانبه مثلما كانت إلى جانبه حينما ولد... وطلب من أبيه عندما يسمع

آخر تأوّه له أن يفرق صدقة على الممرضات مثلما فعل عندما سمع أول صرخة له... وطلب أيضاً من زوجته أن تخبره عن اسم الفصل الذي تدرس فيه ابنته.

علّمت نفسي

ليس المهم أن يكون رأس المرء أبيض لكي يتحدث عن تجاربه، ولكن الأهم هو أن يحمل شغفاً للتعلم وحباً للتجربة، وكلما مرّ شخص أعرفه بتجربة مريرة سواء في سفر أو عمل أو غير ذلك أقول له: «هنيئاً لك، لقد وجدت قصة ترويها لأحفادك يوماً ما».

تعلمت من الحياة الشيء الكثير، وعلمت نفسي من تجاربها أشياء جميلة، فلقد علمت نفسي الإصرار وحب المستحيل، وأقمت حلفاً مع المستقبل ليكون نصب عيني بخيره وشره، وألا أتذمر أو أهرب منه، بشرط، أن يعدني هو بألا يخذلني إذا ما أوفيت بعهودي... وأحسنت الظن بالله تعالى وتوكلت عليه، وكانت تلك البداية.

علمت نفسي أن أقول «نعم» عندما أشعر بالحاجة للرفض، ودرّبتها على قول «لا» عندما تكون المغريات كثيرة. فكما قال دايل كارنيجي: «إذا أردت أن تعيش سعيداً فلتكن قادراً على قول (لا) مثلما أنت قادر على قول (نعم)».

علمت نفسي أن أقود سيارتي في الزحام كل صباح وفي كل مساء دون أن أستخدم بوقها المزعج، ودرّبت نفسي على أن أستمتع بكل دقيقة في الزحام الذي يمنحني وقتاً لصفاء الذهن واسترجاع ما فاتني من ذكريات جميلة. علّمني الزحام أن أصل أهلي وأصدقائي عبر الهاتف، واكتشفت بأن أحبائي الذين حالت زحمة الحياة بيني وبينهم لا يطلبون أكثر من ذلك.

علَّمت نفسي أنه عندما أصل إلى بيتي عائداً من عملي أن أجلس دقيقة قبل أن أترجّل من السيارة، وعندما أضع ناقل السرعة في وضع الوقوف فإنني أضع معه كل هموم العمل وإشكالاته، لأدخل على أسرتي كزوج لطيف وكأب حنون. فأسرتي تحبني لأنني جزء منها وليس لوظيفتي أو لراتبي، وكلما نظرت في أعين أطفالي أجدها تقول لي: إنهم لا يلقون بالاً إلى عملي طالما أنني أعود إليهم كل يوم.

علمت نفسي أن أقبل ببعض الفوضى في حياتي، لأن الحياة دون قليل من الفوضى، تصبح كمن يحاول أن يضع جميع حبات الأرز في القدر بطريقة منظمة ومصفوفة إلى جانب بعضها البعض، وذلك على الرغم من أنه يعلم بأن لذة الرز تكمن في قلبه رأساً على عقب. علمت نفسي أن أنحني للريح القوية احتراماً، وأن أكون مرناً مع تقلبات الحياة حتى لا أنكسر، لأن الانكسار من شيَم الخاسرين. علّمت نفسي على قبول جميع أنواع

الطعام، طالما كان ضمن المسموح به، وتعلّمت ألا آكل حين يجوع الناس وألا أجوع عندما يشبعون .

أرتني الحياة أناساً يجلدون أنفسهم ويحبون التهلكة ليقال عنهم أبطالاً. البطولة هي أن تقوم بشيء لا تريد القيام به، ولكنك تعلم أنك تفعل ذلك لأنه لا أحد غيرك يستطيع القيام به. ليس المناضل من رفع سيفاً وقاتل جيشاً لوحده، وليس الشهيد من مات دون فائدة حتى وإن كان من أجل قضية، فالمنفعة أهم من الهدف، والهدف دون خطة يبقى حلماً.

علمتني الحياة أن نصيب الإنسان هو أجمل أدبيّات الحياة، فكلما أهمّني أمر من أمور أحد أبنائي أقول لزوجتي: «نصيبه هكذا» وكلما أخفقنا في تحقيق شيء ما أقول لها: «نصيبنا هكذا». ما أجملها من كلمة، وما أعمقه من معنى، فبعد كل المحاولات لا يوجد هناك شيء اسمه فشل، ولكنه النصيب. ليس الفشل أن نخفق في تحقيق أهدافنا، ولكن الفشل هو ألا نحاول الوصول إلى الهدف. عندما أخفق أكون سعيداً لأنني كلما أخفقت كلّما اقتربت من النجاح، وما النجاح غير مجموع محاولات فاشلة؟

علمت نفسي أن أعطي كلما سنحت لي الفرصة وكلّما استطعت، وأن أعطي أي شيء تجود به نفسي، حتى دموعي أعطيها أحياناً للآخرين... قد لا تنفعهم ولكنها ستنفعني

بالتأكيد. وعلمتني الحياة أنه كلما أعطيت أكثر كلّما كسبت أكثر، كم هي جميلة هذه المعادلة.

علمت نفسي أن أحب نفسي وأن أحترمها قبل كل شيء، وقبل كل شخص أيضاً، ففاقد الشيء لا يعطيه. ودرّبت نفسي أن أعيش بين الكل عندما أكون وحيداً، وأن أكون وحيداً عندما أكون مع الكل.

علّمت نفسي ألا أسلّم الراية إلا لمن هو أصلح مني وإن كان عدوي... على ألا تكون راية بيضاء، وعلّمت نفسي أن العيش في سبيل الله أصعب من الموت في سبيل الله، وأن إحقاق الحق ليس بالضرورة أن يكون في مواجهة الباطل. وعلمت نفسي أيضاً أن الحق المطلق ليس من خصائص البشر ولا يصلح أن يتحلّوا به، فهو لله وحده، لأنه هو فقط من يستطيع أن يسيطر على كل شيء مطلق.

هناك مثل انجليزي يقول: «نولد باكين، ونعيش متذمرين، ونموت غير راضين»،فلماذا لا نبدأ الحياة اليوم لنعيش ونموت ونحن راضون؟ الحياة لن تتوقف، ولكن لابد لها من نهاية. أما الإنسان فإنه يتوقّف وينتهي. الفرق بين الإنسان والحياة، أن الحياة لا تعرف متى نهايتها، أما الإنسان فإن نهايته تكون عندما يتوقف عن الحياة.

لو تأمّلنا قليلاً

قبل عدة أشهر كنت مريضاً فذهبت إلى طبيب صيني حكيم، فقال لي: «تأمّل وستشفى دون علاج» ونصحني بقراءة كتاب عن التأمّل، فتوجهت إلى المكتبة واشتريت كتاباً اسمه «8 minute meditation» الذي على الرغم من صغر حجمه وبساطة لغته إلا أنه يجبر قارئه على ممارسة التأمّل ولو من باب الفضول.

وكان أكثر ما شدّني في الكتاب هو قواعد التأمّل الثلاث (تقبّل... تقبّل... تقبّل) حيث على الإنسان أن يتقبّل كل شيء حوله أثناء التأمل، كبكاء الأطفال مثلاً أو صوت التلفاز أو غير ذلك من مسببات الإزعاج والتوتر. ومع المحاولة والتدريب فإن الإنسان يمكنه أن يتأمّل حتى تحت قصف الطائرات والمدافع.

يقصد بالتأمل هو أن يصفّي المرء ذهنه من كل شيء ويجلس في هدوء وسكينة تامّة لمدة من الزمن لا يفعل فيها شيئاً ولا يشغل تفكيره هم من هموم الحياة. وقد يكون التأمّل هو التفكّر في الطبيعة دون محاولة تفسيرها، كأن يتفكّر المرء في عظمة خلق الله تعالى للسماء دون إشغال ذهنه في كيفية خلقها

ورفعها دون عمد، فذلك أمر آخر مكانه في قاعات الدراسة وليس في جلسات التأمل، فإذا دخلت الماديّات حيّز التأمّل فإنها تهين أدبياته وتعتدي على خصوصيته.

ثم قرأت جملة للدالاي لاما يقول فيها: «عندما يتأمّل الإنسان فإنه يسيطر على نفسه، وعندما يسيطر على نفسه فإنه يصبح هادئاً وتكون نظرته إلى الحياة هادئة... وبالتالي فإن تصرفاته وردود أفعاله تجاه الحياة تكون هادئة أيضاً». في تلك اللحظة تذكرت أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضى ردحاً من الزمن في غار حراء يتأمّل قبل أن يأتيه الوحي، فلم يكن يعرف في تلك الفترة الوحي أو الرسالة وكل ما كان في الأمر أن الله تعالى كان يهيئه لحمل أهم رسالة من السماء إلى الأرض.

وكان طوال تلك السنين يدرّبه على السيطرة على النفس والتحكم في الذات، فكان التأمل أهم مرحلة مر بها حامل أعظم رسالة في التاريخ. ولذلك كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكثر أصحابه تمالكاً للنفس عندما أتاه رجل وطلب منه أن يأذن له بالزنا، وكان ألطف أصحابه عندما بال أعرابي في المسجد، وعلى الرغم من الطبيعة القاسية للصحراء والظروف السياسية التي مرّ بها هو وأصحابه. إلا أنه كان خبيراً بمداخل النفس ومخارجها، وكان أعلمهم بكيفية كبح جماحها وكيفية النظر إلى مواقف الحياة المختلفة من منظار آخر قلّ من استطاع أن ينظر من خلاله.

عندما يتأمّل الإنسان فإنه يسلك طريقاً تكون أولى محطّاته وأهمّها الاسترخاء، وعندما يسترخي الإنسان فإنه يستطيع فعل المستحيل، وعندما يسترخي فإنه يكون أيضاً أكثر قدرة على الإصغاء ومن ثمّ اتخاذ القرارات الصحيحة.

إن التأمّل جوهر جميع الأديان، السماوية وغير السماوية، وفي الإسلام يعرفه البعض على أنه التفكّر والتدبّر، وفي القرآن ورد ذكر المتدبّرين والمتفكرين في مواضع عديدة، فعندما يتدبّر الإنسان فإنه يصل إلى الحقيقة دون الحاجة إلى خطب ومواعظ، فالتدبّر يحرر الفكر ويشعر الإنسان بما يدور حوله من نواميس الحياة التي تحجب عن البصر وتكشف للبصيرة، وعندما يرى الإنسان ببصيرته فإنه يعرف الله حق المعرفة.

إن التأمل هو أحد الأبواب التي تقود الإنسان إلى معرفة أسرار الكون، ولا أعني هنا أسرار الفضاء والنجوم، ولكن أسرار ما خفي عن الكل وكشف للبعض، فعندما يتأمل المرء فإنه يتحرر من ذاته ويسمو بمعانيه وقيمه ليلتقي مع صفاء الكون ونقائه.

فإذا ما وصل إلى تلك المراتب فإن جميع الأشياء الفانية تنصرف من حوله، ويعود ذلك المرء النقّي الذي جبل على الفطرة عند ولادته. إنها لحظة تاريخية لا يمرّ بها إلا من أطلق العنان لروحه قبل فكره حتى ينغمس في اللاشيء الذي هو في الحقيقة أشياء عديدة لا تتكرر.

عندما نتأمل فإننا نفهم الحياة ونقبل عليها لنطهّرها مما هي فيه، وعندما نتأمل فإننا نقبل الخير ونقبل اللاشَرّ، ونرى ألواناً أخرى غير الأبيض والأسود... وغير ألوان قوس قزح كذلك.

عندما يولد المرء فإنه يكون في حالة تأمل، وعندما تمر أمّه في أصعب لحظات حياتها فإنها تتأمل ذلك الألم الذي يجعلها تهدي الأرض أغلى ما فيها، ولو أنها خُيِّرت لاختارت تلك اللحظة على العيش وحيدة وبدون تأمّل.

عندما نتأمّل نعجز عن أن نكره، ولا نفتأ نترع الحياة حباً وجمالاً، ولا أعني هنا أننا نصبح سذجاً أو مغفلين، ولكننا نعمل الفطرة قبل العقل، تماماً مثلما يفعل الأطفال عندما يتحدثون إلى الآخرين، أو بالأحرى عندما يتحدثون معهم.

عندما نتأمّل فإن لسان حالنا يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، ونستغفر الله في اليوم سبعين مرة وندعوه بعد كل صلاة أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته... وعندما نتأمّل نعرف أن الله أكبر وأوسع من أن يظنّ البعض بأنه لهم هم فقط، وأنه سيرحمهم وسيعذب الآخرين لأنهم ليسوا من الفرقة الناجية.

عندما نتأمّل فإن صدقتنا تكون إما إماطة للأذى عن الطريق أو تسبيحاً وتهليلاً، وعندها يصبح جميع ما على الأرض ملكاً لنا لأننا امتلكنا أنفسنا قبل كل شيء.

عندما نتأمل فإننا نضع الطعام على الأرض ونجلس حوله كما يجلس عابر السبيل الذي لا يريد من الحياة سوى الوصول إلى داره، فيصبح جميع ما يمر عليه في عينيه مثل غروب الشمس الذي على الرغم من روعته إلا أن الإنسان يريده أن ينتهي ويريد للشمس أن تغرب... فهذه سُنَّة الحياة.

عندما نتأمل نترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس، ليس لأنه حرام بل لأننا نشفق على أنفسنا من أن يشوبها أي بأس وإن كان في عرف البعض طيباً، ولأننا نعتقد بأننا حتى نحقق رسالتنا في ما أتيح لنا من وقت على الأرض فإن علينا أن ننظر إلى الموضع الذي ستطؤه أقدامنا وليس إلى موضعها الحالي... لذلك فإننا نريد لأرجلنا أن تطأ الأرض دون بأس.

عندما نتأمّل فإننا نصنع المعروف في أهله وفي غير أهله، فإن أصبنا أهله فهو أهله، وإن لم نصب أهله فنحن أهله، ونرتقي بعقولنا حتى نبلغ منها الرأس، فرأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل برّ وفاجر. وعندما نتأمّل فإننا نعرف دون أن نفكّر ونصل دون أن نقطع الطريق... ولكن لو تأمّلنا قليلاً.

«الفيسبوكّيّون»

قبل أذان الفجر بقليل، تصلني رسالة على الفيسبوك تطلب مني تصحيح مقال، أو مراجعة خاطرة أدبية. وأحياناً، تصلني تعليقات على موضوع ما نشرْتُهُ على موقع الفيسبوك، وقد تكون تلك التعليقات ساخرة، أو ساحرة، كل هذا، قبل الفجر بقليل.

أحاول الخروج، فيشدّني حوار حول موضوع فكري أو أدبي وقد احتدم النقاش بين المتحاورين حتى تتصاقب ردودهم وتتراص مزاحمة بعضها البعض في خصام، وفي وئام، على صفحة بيضاء تشبه قلوب مرتاديها الكرام.

أتردد في المشاركة، ولكن التدفق الأدبي لهؤلاء المتحاورين يدفعني لقول شيء بسيط، فتشتعل الساحة مرة أخرى ليشترك فيها قادمون جدد، حتى أشعر بأن الوقت قد توقف، وتسمّرت النجوم وهي تراقب هذا النقاش الأدبي الذي لم نسمع عنه إلا في الصالونات الأدبية في القاهرة، أيام الرافعي وتوفيق الحكيم وطه حسين وأحمد الزيّات وغيرهم.

أقول في نفسي بأنني سأتوقف عندما أسمع الأذان، ويطول

انتظاري دون أن أسمعه، فيراودني شعور بأن المؤذن موجود معنا في مكان ما في هذا الفضاء الجديد.

لا ينصرف الوقت حتى ننصرف نحن الذين سمّينا أنفسنا بـ «الفيسبوكّيّون» نسبة إلى بلاد ما وراء الإنترنت والمسماة «الفيسبوك». لا ندري كم عالم وأديب ينتسب إلى بلادنا هذه، ولكننا نعلم بأن التاريخ سيذكر منهم الكثير في يوم من الأيام.

قالي لي أحد الفيسبوكيين مرة بأنه أصدر ستة دواوين شعرية خلال سنة واحدة فقط بسبب الفيسبوك، فكلما بذر عدة أبيات من الشعر، عادت له ثمار بذره أبياتاً جديدة خلال دقائق معدودة من أحد المرتحلين معه في تلك البلاد الواسعة، فيجد نفسه مضطراً للردّ عليه والاستمرار معه حتى تكتمل قصيدته.

قلت له إن السبب هو أن الفيسبوك يمثّل أمسية مفتوحة، وجمهورها لا يرحلون حتى يأتي غيرهم لينصت باهتمام، ثم لا يستنكفُون عن المشاركة فيها.

لقد استطاع هذا العالم الجديد، المسمى فيسبوك، أن يغيّر الإنسان حقاً، فلقد كنت أتعامل مع بعض الزملاء في العمل وبعض الشركاء في السوق بطريقة رسمية، وعندما أعود في المساء أجد هؤلاء وقد خلع كل منهم قناعه الذي تسربل به، مثلي، خلال النهار، ليكشف عن الجانب المنير من وجهه، ذلك الجانب الإنساني الذي نفتقده كثيراً تحت ضوء الشمس.

فالكذب صعب على الفيسبوك، وكلّما حاول أحدهم أن يكذب فإنه يقع في شرّ أعماله عاجلاً، أو أنه يشعر بالوحدة في عالم يعجّ بالناس، ويضجّ بأصوات لوحات مفاتيحهم التي تئن تحت وطء أصابعهم ليل نهار.

لقد أوجد الفيسبوك نوعاً جديداً من التواصل الإنساني بين البشر، وكم أستغرب عندما يعلّق أحدهم بأريحية على صورة أو موضوع ما وضعه شخص آخر لا تجمعهما صداقة وطيدة، وكم أستغرب أكثر عندما نندمج في حواراتنا المفتوحة تماماً دون أن نشعر بالخجل مما نقول.

لقد ساعدنا الفيسبوك على أن نبدو أمام البشرية جمعاء على طبيعتنا السمحة، البسيطة، الخالية من تعقيدات بعض المجتمعات وتوترها، وأثبت لنا هذا الفضاء الممتع المتّسع، بأنه علينا ألا نخشى من كلماتنا، ولا من مشاعرنا، ولا من أنفسنا أيضاً.

أعجبني الدكتور سلمان العودة عندما دعا، في رمضان، جميع المسؤولين والمثقفين لقضاء ربع ساعة على الأقل في اليوم على الفيسبوك لكي يتواصلوا مع الناس، وكأن الشيخ يقول بأن هذا الأمر يكاد يكون، بالمفهوم الاجتماعي وليس الديني، فرض عين وليس فرض كفاية.

الكلّ يعرف كلّ ما يحدث على الفيسبوك، وكما يسمّيه أخي بَدّر «الموقع الفضيحة»، فلا يمكنك الاحتجاب وراء أقنعة

مجتمعك مهما كانت جذورك ضاربة في تربته، وبسبب هذا التواصل الخلّاق المتدفق، يشعر أحدنا بأنه يستطيع أن يحادث العالم أجمع من خلال شاشة صغيرة فقط.

فلقد وصل عدد مشتركي الفيسبوك إلى أكثر من نصف مليار مشترك، يزور نصفهم صفحاتهم الشخصية بشكل يومي، أي أنه لو كان الفيسبوك دولة لكان ثالث أكبر دولة في العام، وفي الشهر الواحد، يقضي زوّار الموقع أكثر من سبعمئة مليار دقيقة في تواصل دؤوب مع الإنسانية جمعاء.

لقد ساعدني الفيسبوك على الوصول إلى محبين كثر، جلّهم لا أعرفهم، ولكنني أحببتهم جميعاً منذ الرسالة الأولى، لأنها غالباً ما تكون صادقة. وساعدني الفيسبوك على التعرف على الإنسانية المحضة، المجرّدة من كل تعقيد، والمنقّاة من كل شوائب، فأحسست بأنني أتواصل مع الأرواح لا مع الأجساد.

لقد تعلمت من الفيسبوكيين اللطف، ووجدت عندهم الحب والوفاء، ووجدت في معاشرتهم أناساً يحبون من أحسن إليهم، ويعفون عمّن أساء إليهم، لأنهم يؤمنون بأنه باللطف تُفتَحُ جميع الأبواب. الفيسبوك يدفعنا إلى خارج كهوفنا الجبلية، والجليدية، ويعلّمنا كيف نمشي بين الناس دون أن نفكّر في تحاشيهم، أو الاصطدام بهم.

ويعلّمنا الفيسبوك أيضاً أن ننير المكان بمواهبنا، وبقدراتنا،

وبنجاحاتنا وبقصص إخفاقاتنا، ويعلّمنا دائماً أن نُشعِل الشموع، لا لكي ننشر النور، ولكن لكي نبدد العتمة، يقول طاغور: «من يحمل مصباحه خلف ظهره يُرسل ظلّه أمامه».

بيكاسو وستاربكس

في مساء أحد أيام الشتاء الجميلة عام 2001، خرجت مع صديقي من المكتب إلى أحد المقاهي التي أكد لي أنها تقدم قهوة جديدة ومتميزة تختلف وتتفوق على كل أنواع القهوة التي تعاطيتها في حياتي. دخلنا مقهى «ستاربكس» في دبي ثم سألني عن نوع القهوة التي أفضلها، فقلت له ببساطة: «كابوتشينو» فضحك مني وأسكتني حتى لا أحرجه، فهذا المكان قد تجاوز الكابوتشينو منذ زمن وأصبحت هناك أنواع جديدة بل وطقوس جديدة لطلب القهوة.

ثم بدأ يتمتم لموظف المقهى بألفاظ غريبة لم أسمع بها من قبل، وما أن أنهى تلك التمتمات حتى أعطاه الموظف رصيداً وأشار إلينا أن نتجه إلى المكان المخصص لتسلم الطلبات، فاقترحت على صديقي أن نجلس وسوف يأتي العامل بالقهوة، فضحك مرة أخرى وقال لي إن ذلك العصر قد ولّى وعلي أن آخذ قهوتي بنفسي، بل وأن أضع فيها السكّر وغير ذلك من مكوّنات وأحملها إلى مكان الجلوس.

كانت تلك أول مرة أدخل فيها ستاربكس، وما زلت إلى اليوم

أطلب نفس ذلك الطلب الذي طلبه لي صديقي قبل ست سنوات (كراميل لاتيه، بدون رغوة، حجم عادي)، بل أصبحت أبحث عن ستاربكس في كل بلد أنزل إليه، حتى أنني كنت مع والدي في سنغافورة قبل أيام وشكرت الله أن ستاربكس كان موجوداً على بعد خطوات من الفندق، إلا أنني استحييت من والدي أن أذهب به كل يوم إلى ذلك المكان الذي تبيّن لي أن قهوته لا تتماشي مع ذوقه، فصرت أنزل إليه وحدي بعد أن نرجع إلى الفندق ويذهب أبي إلى غرفته.

تتوزع أفرع ستاربكس في 50 بلداً حول العالم، وتمتد سلسلته إلى أكثر من 16000 فرع، إلا أن إدارة الشركة قد حافظت على هوية المقهى بطريقة محكمة تفوّقت على غيرها من العلامات التجارية العالمية.

فجميع المقاعد والطاولات وتوزيع اللوحات ولبس الموظفين وكل شيء، يحمل نفس النمط في طوكيو ودبي والقاهرة ونيويورك وغير ذلك من مدن، حتى أنواع الناس التي تتوافد عليه متشابهة إلى حد كبير، فعليك أن تكون (كوول cool) لكي تتناسب مع أجواء ستاربكس، وأعني بذلك أنه عليك أن تلبس بطريقة عشوائية، وتسرح شعرك بشكل غريب، وعليك في معظم الأحيان أن تضع كمبيوترك المحمول أمامك، لا لشيء إلا ليقال عنك أنك كوول.

وعليك أن تجلس وإحدى رجليك على الكرسي والأخرى تلوح في الهواء، لتقول للآخرين بأنك شخص غير مبالٍ بالعالم من حولك، فأنت مرح واجتماعي وتخالط العالم من خلال كمبيوترك فقط، حتى قهوتك ـ التي قد تتجرّعها بمرارة ـ فإنه عليك أن تبدي للآخرين بأنك لا تستطيع العيش دونها، لأنك إنسان «عصري» يحب ارتشاف القهوة في كل وقت، ليشعر بأنه في أوج قوته ونشاطه.

في ستاربكس عليك أن تتحدث باللغة «العربلزية»، وهي لغة بعضها عربي وبعضها الغالب إنجليزي، وعليك أن تتحدث أولاً عن السيارات ثم عن الأسهم أو بعض مضاربات الاستثمار التي أجبرت على خوض غمارها لكي تبقى كوول، وعليك أيضاً أن تتحدث عن صديقتك أو مع صديقتك حتى لا تفرّد خارج السرب، وإن حدث وتطرّقت إلى موضوع جادّ فإنك لن تبدو كمن يغرّد خارج السرب فقط، بل ستجرح مشاعر من يجلس حولك لأنك الشخص الوحيد الذي لا يبدو كوول في المكان، ولذلك فإن حديثك سيبدو لحناً نشازاً في سيمفونية الفوضى المنظّمة.

لقد استطاع ستاربكس بحسناته ومساوئه أن يذيب مختلف الثقافات في ثقافة واحدة، وليعذرني الأديب الراحل إدوارد سعيد الذي عرّف الثقافة بقوله: «الثقافة هي الإنتاج الفكري للشعوب»، لأن معايير ستاربكس قد أذابت هذه المقولة مثلما تذيب قهوته

الذوق الرفيع، وفرضت نفسها على المجتمع الإنساني كثقافة، إلا أنها تذيب الفكر ولا تنتجه.

فثقافة ستاربكس تلتقي مع ثقافة فنان القرن العشرين الأكثر شهرة على الإطلاق «بيكاسو»، في عالم اللامبالاة وفي إنتاج اللا معنى، فبيكاسو الذي كان يعمل عكس عقارب الساعة، وحيث كان ينام في النهار ويعمل في الليل، تدلّ أغلب أعماله ـ حتى للإنسان البسيط ـ على أنها ناتجة عن شخص غير مبالٍ بما يقوم به، وعلى الرغم من أنه تأثر بالحروب العالمية وحاول عكس تأثيراتها في لوحاته ـ كما يصرّ المحللون إلا أن الفوضى المنظمة تبقى صفة لصيقة بجميع أعماله.

لقد كان بيكاسو المنحدر من أسبانيا فقيراً جداً في بداية حياته إلى درجة أنه لم يكن لديه حطب يدفئ به غرفته، مما اضطره إلى حرق لوحاته في بعض الأحيان للحفاظ على حرارة جسده، وكان كثير التردد والتنقل من موضوع إلى آخر.

وأستغرب كيف يصفه المحللون بأنه تأثر كثيراً بالظروف الاجتماعية التي مرّ بها فعكسها في أعماله، ويقولون في نفس الوقت بأنه كان غير مبالٍ حتى ظهرت هذه اللامبالاة في شخصية المهرج التي طبع بها معظم أعماله الشهيرة! وكانت نتيجة هذه اللامبالاة أن انتقل من مرحلة إلى أخرى صنّفها المتخصصون على أنها مراحل فنية عظيمة ما زالت تدرس إلى اليوم.

فهناك المرحلة الزرقاء التي تميزت برسم الساقطات والمتسولين، ثم المرحلة الحمراء، ومرحلة التأثير الإفريقي، والمرحلة التكعيبية التحليلية، والمرحلة التكعيبية التركيبية، وغير ذلك... وعلى الرغم من أن المطَّلع على أعمال بيكاسو يجدها مبهمة جداً إلى حدّ الغرابة، وغريبة جداً إلى حد الملل، إلا أنه لا يحق لأي شخص أن يتحدث عن أعماله إلا بطريقة علمية يتناول فيها جميع الركائز الأساسية للفن الحديث، وأكاد أجزم أن بيكاسو نفسه لم يضع أياً من هذه التحاليل نصب عينه عندما أمسك بفرشاته وأعملها في لوحاته... فهو كان يعبّر فقط، ولكن علينا نحن أن نضع معايير وشروطاً علمية وفنيّة وأكاديمية، أما هو فيمكنه أن يلعب كيفما يشاء.

في ستاربكس تبدو جميع الجدران وكأنها من أعمال بيكاسو، فهي مبهمة ومملة في كثير من الأحيان، إلا أنه علينا ألا نتحدث عنها بلغة بسيطة عندما ننظر إليها، وعلينا أن نطبق شفاهنا ونعقد حواجبنا لكي نبدي للآخرين أننا ندرس هذه الجداريات بروية لنعرف مغزاها، وعندما نقف أمام العامل الذي يأخذ الطلبات فإنه علينا أن نتّخذ أصعب القرارات لنحصل على كوب قهوة (ماكياتو وسط، حليب قليل الدسم، فرابوتشينو كبير بدون كريمة وقليل الثلج، لاتيه صغير بدون رغوة، ديكاف، كوب ورقي).

وما أن ننصرف عن الموظف حتى نصبح أحراراً يمكننا أن

نعبث في المكان، ولكن بشروط ثقافته تماماً مثلماً كان يفعل بيكاسو، وإن تجرأ أحدنا على الانتقاد فإنه سيبدو كالمتزمّت الذي لا يفقه من الفن شيئاً.

في ستاربكس قد تكون حراً إلا أنك تبقى مقيَّداً، وقد تفكّر مثل بيكاسو إلا أنك لن تبدع مثله... وقد تعشق القهوة إلا أنك ستمقتها لا محالة.

في باريس يفتخر الفرنسيون بأعمال دافينشي التي تحتضنها متاحفهم، إلا أنهم يؤكدون دائماً على أنه إيطالي، وفي باريس لا يكاد ستاربكس أن يُرى لأن الفرنسيين يفضلون أن يرتشفوا قهوتهم كيفما يريدون هم لا كيفما يراد لهم... ويفضلون أيضاً أن يرتشفها غيرهم على الطريقة الفرنسية.

العبيد الجدد

يسكن دبي منذ أكثر من عام، إلا أن شقته الجميلة التي تطلّ على البحر لا تحوي غير سرير صغير (مؤقت) فقط في الغرفة التي ينام فيها، وهي الغرفة الوحيدة التي يعرفها، أما باقي البيت فلم يجد الوقت الكافي لاستكشافه بعد. عندما سألته عن سبب ذلك قال لي إنه لم يستطع أن يتفق مع شركة الأثاث ـ الذي دفع قيمته قبل أكثر من عام ـ على وقت مناسب ليوصلوا له الأثاث إلى البيت، فعمله يفرض عليه أن يكون متواجداً فيه طوال النهار... وطوال الليل أحياناً.

أمثاله كثر ممن يظنون أن العمل الشاق والمنهك هو وسام يعلّقه الموظف على صدره، أو ميدالية ذهبية يفوز بها الموظف الذي لا يعلم أنه يعيش تماماً مثلما كان العبيد يعيشون أيام الفراعنة. فعلى الرغم من أن كل من شارك في بناء الأهرامات كان يجب عليه أن يشعر بالعز والفخر لأنه كان يبني أعظم بناء في تاريخ البشرية، إلا أنه في كل الحالات كان يعلم أنه عبد ليس إلا.

كلما عدت من العمل متأخراً ـ لأنني أحد هؤلاء العبيد أيضاً ـ يقول لي ابني سعيد: «بابا لا تذهب إلى العمل مرة أخرى»، وكلما أتذكر كلماته وأنا في عملي أوقن أنني أغتال أجمل أيام عمري وعمره معاً. يقضي الموظف منا معظم حياته في الوظيفة إلا أن ذلك قلّما يؤثر إيجاباً على حياته، فما هي حقيقة العمل؟ والأهم من ذلك ما هي حقيقة الحياة؟

معظم الذين يعيشون الوظيفة يشربون قهوة سوداء (دون سكر) كل صباح، ليس لأنهم مرضى بالسكري بل لأنهم يعلمون أنهم سيصابون به حتماً في يوم ما... يشربونها سوداء لينعشوا ذاكرتهم التي خانتهم عندما حاولوا أن يتذكروا من هم أو بالأحرى ما هم. يفتخرون بأنهم يتحدثون الإنجليزية... والإنجليزية فقط، وإذا استرقت النظر إلى ملاحظاتهم التي يدوّنونها خلال الاجتماعات الطويلة تجدها بالإنجليزية أيضاً، حالهم في ذلك حال الغراب الذي حاول أن يقلّد مشية العصفور فلم يفلح، وعندما أراد أن يعود غراباً لم يفلح أيضاً.

عندما دخلت التكنولوجيا حياة الإنسان تفاعل الجميع بها وراهن الخبراء أنها ستكون الأداة التي تنقل الإنسان من الشقاء إلى السعادة، وأن كل شيء سيكون ممكناً (بضغطة زر)، إلا أن أحداً لم يتوقع أن تسيطر هذه الأزرار على حياتنا وعلى موتنا أيضاً.

أصبح الموظف الناجح محكوماً عليه بحمل أجهزة الاتصال المباشر بالبريد الإلكتروني «بلاك بيري» وإذا ما سافر فإنه مجبر (اختيارياً) على التأكد من أن غرفته بها خط للاتصال بالإنترنت، بل إن البعض لا يسافر على طائرة إلا إذا كان بها اتصال بالإنترنت. ومن ملامح هؤلاء أنهم يجلسون في مكاتبهم حتى بعد انتهاء الوقت الرسمي للعمل لا لشيء إلا لأنهم يشعرون أنه ليس هناك مكان آخر يذهبون إليه، ولو استطاعوا لاستأجروا غرفاً مجاورة لمكاتبهم حتى لا يفارقوها أبداً.

عانيت قبل فترة من اختلال في ضغط الدم، فكان يهبط فجأة ومن ثم يعود للصعود المفاجئ تماماً كسوق الأسهم إلا أنني كنت أخسر في كلتا الحالتين، فعند الهبوط كنت أشعر بأن روحي تخرج من جسدي وعند الارتفاع كان جسدي يرتعش وكأن أحداً قد أوصله بتيار الكهرباء.

ركبت الريح على الفور وتوجهت إلى سنغافورة للعلاج ـ تأكدت قبل الحجز أن غرفة الفندق بها خط إنترنت ـ وبعد الفحوصات قال لي الطبيب إن جسمي سليم وليس به شيء ومشكلتي هي في عملي وقال أيضاً: «إذا كنت تعمل لكي تعيش، فاعلم أنك تعمل لتموت»، ونصحني بقراءة بعض الكتب المتعلقة بإدارة ضغوطات العمل.

لكل منا أسبابه الخاصة التي تدفعه إلى الاستماتة في العمل،

وفي دراسة قام بها مركز دراسات «موازنة الحياة مع العمل» الأميركي تبيّن أن هناك خمسة أسباب لذلك، أولها أن يكون لدى الإنسان تحدٍّ في عمله يريد أن يتغلب عليه، وثانيها أن يكون عمله مصدر إلهامه وحماسته في الحياة.

وثالثها أن تكون العوائد المادية من عمله عالية جداً أو مرضية، ورابعها أن يحب الموظف زملاءه حباً جماً لدرجة أنه لا يستطيع أن يفارقهم ساعة، وآخرها هو تحقيق الموظف لذاته من خلال إنجازه لمسؤوليات العمل. وأياً كانت هذه الأسباب فإنها تؤدي إلى «اشتراكية الوظيفة» أي إشراك الحياة في الوظيفة وسيطرة الأخيرة على جميع جوانب الإنسان.

إن الهدف الحقيقي من الحياة هو السعادة، فحتى عبادتنا لله سبحانه وتعالى تنبع من شعورنا بالرضا النفسي تجاه أنفسنا عندما نقوم بذلك، فنحن نعبده لندخل الجنة وبالتالي لتحقيق السعادة، ونؤدي فرائضه لنشعر بالطمأنينة والراحة النفسية ولنعقد سلاماً داخلياً مع نفوسنا... أي لنحقق السعادة.

وإذا كان كل شيء نقوم به في حياتنا هدفه تحقيق السعادة فلماذا إذاً نستميت في أعمالنا التي يُخيّل لنا أنها ستسعدنا في يوم ما وهي تزيدنا شقاءً يوماً بعد يوم؟ كلما أتذكر هذه الحقيقة أقول في نفسي: «سأجلس مع أبنائي وأتفرغ لهم أكثر عندما أحصل على ترقية»، وها أنا حصلت على مجموعة من الترقيات

ولم يزدني هذا إلا بعداً عن أسرتي وعائلتي... وعن نفسي أيضاً، فبتُّ لا أعرف من أنا ولا ما أريد أن أحققه في حياتي القصيرة.

قبل عدة سنوات قامت شركة أي بي إم بتخصيص مبلغ 50 مليون دولار لطرح برامج توازن بين حياة الموظف وبين وظيفته، وكان أحد هذه البرامج هو العمل بالإنجاز أو بمؤشرات الأداء وليس بالحضور إلى مكاتب المؤسسة، فلا يهم المؤسسة إن كان الموظف على مكتبه في الوقت المحدد أم لا، وكل ما يهمها هو أن ينجز عمله في الوقت المحدد حتى أصبح أكثر من 40% من موظفي أي بي إم يعملون خارج مكاتب الشركة، سواءً من منازلهم أو من مقاهي الإنترنت أو من أي مكان في الدنيا.

أما شركة American Century Investments فقد خصصت ميزانية لشراء أدوات للرياضة المنزلية لكل موظف ـ دون استثناء ـ ليستطيع الموظف أن يحافظ على لياقته البدنية وبالتالي يعيش بصحة جيدة، وكلتا هاتين الشركتين تقولان إن إنتاجيتهما ارتفعت بعد تطبيق هذه البرامج التي تسعى لطرح توازن بين حياة الموظف وبين وظيفته.

إذا كنت ممن يطيلون الجلوس في مكاتبهم بعد العمل فأنت عبد جديد، وإذا كنت حين تضع رأسك على وسادتك تفكر بأحداث يومك في العمل فأنت عبد جديد، وإذا كان أعزّ أصدقائك هو أحد زملائك في العمل فأنت لا شك عبد جديد...

الفرق بين العبيد الجدد والعبيد القدماء أن القدماء كانوا مرغمين على إطاعة أسيادهم وتنفيذ أوامرهم، أما العبيد الجدد فإنهم يظنون أنهم مرغمون على تنفيذ أوامر أسيادهم (مديريهم) إلا أنهم في الواقع ليسوا إلا عبيداً لهذه الفكرة فقط، وهم أيضاً عبيد لأوهامهم التي تقول لهم إنهم سيكونون يوماً ما عبيداً أفضل.

مع باولو كويلو

كان موعدي معه في الساعة الثامنة مساءً في شقته القابعة على مقربة من نهر «السين» وبرج إيفل، ولأنني لم أرد أن أتأخر على الموعد ولو حتى دقيقة واحدة فقد خرجت من الفندق الساعة السابعة حتى لا تعرقلني زحمة المرور. كنت أظن أن البناية التي يسكن بها تقع في أرقى أحياء باريس وتنتشر حولها السيارات الفارهة والمطاعم الفاخرة إلا أنني اكتشفت عندما وصلت بأنها منطقة عادية بل عادية جداً.

وصلت الساعة السابعة والنصف، ولأنني أدركت بأن العرب فقط هم من يتوقع وصول الضيف في أي لحظة ـ سواء كان ذلك قبل الموعد أو بعده ـ فلقد آثرت أن أنتظر عند باب البناية حتى تقترب الساعة من الموعد المحدد.

كان الجو بارداً جداً في مساءٍ باريسي مفعم بطموح شاب أتى من الصحراء، يحمل حقيقته التي تقول له دوماً بأن حلمه كان وسيظل أكبر بكثير منها، وسيظل هو الدافع الحقيقي لتحقيقها.

وأنا أمام تلك البناية التي تقع في اللامكان، تذكرت بأنني

وقفت مرّة لأكثر من أربع ساعات في طابور طويل قبل أكثر من عامين في إحدى المكتبات في دبي عندما جاء إليها ليوقع كتبه ويلتقي بقرائه، وعندما وصلت إليه قلت له بأن كتاباته قد أثرت في حياتي كثيراً فردّ عليّ: «يا صديقي إننا محاربون، والمحاربون يتحدثون لغة بعض»، وتذكرتُ أيضاً بأني قلت لزوجتي بعد أن عدت إلى البيت ذلك اليوم بأني سأكون أحد الأصدقاء المقربين لهذا الرجل...

كان مدخل البناية مظلماً وصغيراً حتى ظننته مدخلاً للخدمات وليس للسكان. يقع في آخر الممر مصعد خشبي يكفي شخصاً واحداً فقط، ذو باب حديدي سحاب ذكّرني بالمصاعد التي كنا نشاهدها في الأفلام القديمة. دققت جرس الشقة فسمعت صوت كويلو من الداخل يقول: «لا بد أنه ياسر» وعندما فتحه أخذني في حضنه وقال لي: «كنت أنتظرك منذ زمن».

بعد أن جلسنا وقدمت له هدية بسيطة من الصحراء قال لي: «سأقدم لك هدية خاصة لا أعطيها إلا لأصدقائي المقربين... تعال»، وإذا به يناولني قوسه الذي حمله معه منذ أكثر من عشرين سنة، حيث تعد الرماية بالقوس هي هوايته المفضلة.

شقته بها ممر طويل، تقع في آخره قطعة مربعة من الإسفنج المقوى بها دائرتان، الكبيرة بيضاء والصغيرة حمراء، تماماً كالقطع التي كان روبن هود وأصدقاؤه يستخدمونها ليتمرنوا على

رماية السهم. أمسك بالقوس بيده اليسرى ومدّها أمامه ووضع مقدمة السهم على جانب القوس وثبّت مؤخرته بالحبل... سحب الحبل إلى صدره بيديه اليمنى ونظر إلى هدفه للحظات ظننته فيها قد غادر الغرفة إلى عالمٍ آخر، وفجأة انطلق السهم دون أن يرف له جفن، فسألته عن سبب وضع القوس والسهم قريبين من صدره وليس أمام عينه تماماً فقال لي:«لأنني لا أحتاج إلى عيني عندما أرمي، فأنا أرمي ببصيرتي وليس ببصري» فقلت له بأنه لن يصيب الهدف بهذه الطريقة فردّ: «ومن قال لك بأنني أريد أن أصيب الهدف؟ ومن قال لك بأن العين هي التي تبصر؟ العين مجرّد أداة ينظر بها القلب ويستخدمها أولئك الذين أعموا قلوبهم عن النظر، أما أنا فإنني أسحب السهم حتى يقترب من قلبي لكي يسدد هو الرمية وأبقيه بعيداً عن عيني المفتوحتين اللتين تراقبان فقط».

ثم ناولني القوس والسهم وقال لي: «انظر يا ياسر، القوس هو الاحتمالات والسهم هو النوايا وأنت هو أنت، فإذا استطعت أن تحدد احتمالات حياتك جيداً واستطعت أن توحدها مع نواياك ومن ثم توحدت أنت معها جميعها أصبحتم كلكم شيء واحد... أصبحتم السهم، عندها فقط أطلق نفسك تجاه هدفك... واعلم جيداً بأنه ليس عليك أن تصيب الهدف...

فهذه ليست مسؤوليتك وإنما دورك هو القيام بكل ما سبق،

وما أن يفارق سهمك قوسك فاعلم أنه بيد الله يصرّفه كيف يشاء، فإن أصبت الهدف كنت سعيداً لأن الله سدّد رميتك، وإن أخطأته فاعلم أنه من الله أيضاً ولكن ابحث عن الأسباب، فقد تكون أخطأت تحديد احتمالاتك أو أن نيّتك لم تكن واضحة أو سليمة... أو أنك لم تستطع أن تتّحد معهم لتشكل السهم».

سحبت السهم بقوة وأطلقته إلا أنني أخطأت الهدف فقال لي: «اسحبه حتى يقترب من قلبك، ولا تفكر في إصابة الهدف... أخلص نيّتك فقط»، عاودت الكرة مرة ثانية فقال لي: «أغمض عينيك وتخيل نفسك واقفاً لوحدك في إحدى السهول وتخيل هذه الدائرة الصغيرة كبيرة جداً لدرجة أنها تحجب عنك رؤية الجبل، وكيفما أطلقت سهمك فسوف تصيبها... واستمع إلى قلبك جيداً».

فعلت ما قال وأخلصت نيّتي وتوكلت على الله... سحبت السهم حتى اقترب من قلبي وقلت في نفسي بأن دوري هو إطلاقه فقط وليس علي إصابة الهدف وأن الله سيوفقني لأنني أخلصت النية، ولأنني أحبه وأحب عمل الخير، ولأنني لا أريد من حياتي شيئاً إلا إضافة أثر إيجابي في حياة الناس... يا رب أنت أعلم بنيّتي وأدرى بحالي وتعلم بأنك إن وفّقتني شكرتك وإن لم توفّقني شكرتك أيضاً، وقلت بأن حكمتك أكبر من فهمي... لم أعلم إلا والسهم منغرز في الدائرة البيضاء، فصاح كويلو فرحاً: «أنت أول شخص أعرفه يصيب الهدف من أول مرة يجرب فيها الرماية».

سألني ونحن نتناول العشاء: «هل صحيح بأن النبي محمداً عندما رأى كفّار مكة قبل بدء معركة بدر وقف يدعو ربه ويصلي» فقلت له نعم، فسألني عن السبب فقلت له: «كان يدعو ربه لكي يعينه والمسلمين وأن ينزل عليهم السكينة»، فاستغرب لماذا يطلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ السكينة.

فقلت له: «لأن معظم المسلمين الذين كانوا معه قد طُردوا من مكّة، وإن كثيراً منهم قد تجول في نفوسهم فكرة الانتقام لأنفسهم ولأهلهم الذين عُذّبوا وطُرِدوا من ديارهم، وكان الهدف الحقيقي من تلك المعركة هو أن تتشكل للدين قوة لا ينكسر بعدها أبداً، ولم يكن الهدف هو الحرب فقط، فأراد النبي أن يقاتل المسلمون الكفّار لا أن يقتلوهم، والفرق كبير بين القتال والقتل».

فقال كويلو: «كم هو عظيم محمد... كلما سألت أحداً عنه أكتشف أنه عظيم أكثر مما سبق»، ثم قال لي بأنه سمع من إحدى المسلمات أن دور المسلم في هذه الحياة هو أن يتزوج ويشكّل أسرة ليكون جزءاً من الحياة الإنسانية، فهل هذا الكلام صحيحاً؟ فقلت له: «إن دور الإنسان على وجه الأرض هو عبادة الله وحده، وبعد ذلك عليه أن يقدم شيئاً نافعاً للبشرية، وقد تعني البشرية لشخص ما فقير يتصدق عليه وقد تعني لشخص آخر دواء نافعاً ينفع به الناس أجمعين... فعل الخير هو الهدف

الأسمى، وكما قال نبيُّنا فإن فقيهاً واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد».

تعانقنا قبل أن أرحل وقال لي بأنه سيأتي إلى دبي قريباً فسألته إن كانت دبي ستلهمه ليكتب رواية يوماً ما فقال لي: «أظنها ستفعل».

الحلم أهم من الحقيقة

حكى لي زميلي هذه القصة: اتصلت به إحدى زميلاته لتستشيره في موضوع استكمال دراستها العليا، وعندما سألها بعض الأسئلة المتعلقة بوظيفتها وبتخصصها قالت له بأنها درست إدارة الأعمال في إحدى الجامعات في الدولة، وبعد مدة قصيرة تركت الجامعة وتوجهت للعمل في أحد البنوك وانخرطت في إحدى كليات الشريعة لتحصل على شهادة البكالوريوس في الدراسات الإسلامية.

سألها عن المجال الذي تريد أن تكمل فيه دراستها العليا فقالت له بأنها تفكر في القانون، فظن زميلي بأنها تريد أن تغيّر مجال عملها لتكون محامية أو قاضية، إذا سمحت لها الظروف. قالت له في يوم ما أنها بأنها لا تحب هذه التخصصات! وفي النهاية أقرّت له بأنها تريد «شهادة والسلام» فنصحها بدراسة إدارة الأعمال لأنها ستفيدها في مجال عملها في البنك، وعلى الأقل فإنها «شهادة مفيدة والسلام».

وكنت قبل سنة في دورة تدريبية حول القيادة، وفي نهاية

الدورة قال لنا المدرب: «معظم الناس الذين يريدون أن يحققوا شيئاً في حياتهم يركزون على نقاط ضعفهم ويحاولون طوال حياتهم جاهدين تقويتها متناسين في نفس الوقت نقاط قوتهم. وتكون النتيجة أن تقوى نقاط ضعفهم لتوازي نقاط قوتهم التي تبقى على حالها ليصبح الإنسان شخصا عادياً وليضيع عمره سدى في محاولاته البائسة لصقل مهاراته وأخذ زمام حياته... ما أريد قوله هو أنه يجب عليكم أن تكتشفوا أنفسكم قبل كل شيء ومن ثم ركّزوا على نقاط القوة التي تملكونها لأن نقاط الضعف ستقوى مع مرور الوقت... والأهم من ذلك عليكم أن تحلموا حتى تستطيعوا أن تصبحوا قادة».

لو قدّر لي أن أكون باحثاً نفسياً أو اجتماعياً كابن خلدون ودرست طبائع البشر وحياتهم لاكتشفت ببساطة أن معظمنا يقضي حياته مثل زميلتنا سابقة الذكر، وأن القلة القليلة منا يعرفون من هم بالضبط، وهؤلاء هم القادة الذين نراهم في الصفوف الأمامية دائما.

نستقل نحن العرب دائماً بالأحلام أياً كان نوعها وحجمها، ولربما يكون الواقع العربي هو المسؤول عن عمليات الاغتيال هذه، إلا أن كل أمة عظيمة وكل شخص عظيم سطّر اسمه بحروف من ذهب على صفحات التاريخ كان حالماً قبل كل شيء آخر، فحلم الإنسان هو الذي يصنع حقيقته وليس العكس،

فالأديب الإنجليزي «تشارلز ديكنز»، الملقب بأديب البؤس، عانى طوال حياته من الفقر والحرمان والتفكك الأسري، واشتغل في أحد مصانع الدهان بأجر زهيد جداً، وكانت أسرته مفككة ترمي به عند جيرانها ليعتنوا به كلما سنحت لهم الفرصة للتخلص منه، وعلى الرغم من كل ما مرّ به في حياته التي صورها في روايته الشهيرة «ديفيد كوبر فيلد»، إلا أنه كان متفائلاً دائماً، وكان يحلم ويعرف بأنه سيصبح شخصاً غنياً ومشهوراً في يوم ما. أخذه أبوه مرة إلى بيت كبير وجميل وقال له بأنه إذا عمل بجدّ فربما يصبح هذا المنزل ملكاً له، وبعد مرور سنوات طويلة ذهب ديكنز واشترى نفس المنزل وسكن فيه.

وقبل أن يموت كان ديكنز أشهر رجل في بريطانيا وأصبحت كلماته تعدّ من الأدب العالمي الذي يفتخر الناس بتكرارها والاستشهاد بها في مسرحياتهم وكتبهم ومقالاتهم... استطاع ديكنز تحقيق حقيقته لأن حلمه كان أكبر منها وكان هو شغله الشاغل في حياته، ولأنه عرف قبل كل شيء من هو وماذا يمكنه أن يحقق في حياته.

يقول كلينتون في كتابه الذي يروي سيرة حياته أنه عندما صافح الرئيس الأمريكي جون كينيدي عام 1963 في البيت الأبيض ونظر في عينيه قرر أنه سيكون رئيساً لأميركا، واستمر في تطوير حلمه وحمايته من «القناصين» المثبطين الذين يرون

الدنيا من خلال منظار واحد فقط، فدرس في جامعة جورج تاون وأكسفورد وييل، حتى صنع له حقيقة خاصة به أهّلته لأن يحقق ذلك الحلم الذي لم يراوده طوال عمره فقط، وإنما كان بالنسبة له المصباح الذي ينير له دربه كلما أسدل الليل ستاره.

وعندما سئل هارلاند ساندرز، مؤسس سلسلة مطاعم كنتاكي الذي عرض خلطته على 9000 مطعم ولم يقبلها إلا المطعم رقم 9000 عما كان سيفعله لو أن المطعم الأخير لم يشترِ منه الخلطة قال: «كنت سأتوجه إلى المطعم رقم 9001» لأنه كان يعلم بأن حلمه لابد وأن يتغلب على حقيقته، وكان يعلم أيضاً أنه إذا كانت الحقيقة هي العربة فإن الحلم هو الحصان الذي يجرها.

يعيش الإنسان على قدر حلمه بغض النظر عن حقيقته، فمن يكون حلمه أن يشتري سيارة رياضية يعيش على حجم قطعة الحديد تلك حتى وإن اشتراها، ومن يكون حلمه أن يخرج شعبه من براثن الفقر والمجاعة مثلما فعل محمد يونس مؤسس بنك «جرامين» في بنغلاديش الذي استطاع أن يعبر بأكثر من 40 مليون بنغالي فوق خط الفقر، يعيش كبيراً حتى وإن لم يحقق ذلك الحلم. وقديماً قيل: «مَن عاش لنفسه عاش صغيراً ومات صغيراً، ومَن عاش لغيره عاش كبيراً ومات كبيراً».

إن الذين يعيشون حقيقتهم تكون أعمارهم محدودة بعدد

السنوات التي كتبت لهم، ومن يعيشون أحلامهم فإنهم غالباً ما يخلدون في هذه الدنيا...

كان والت ديزني يقول دائماً: «حلمي أن أسعد العالم»، وبعد أن استطاع أن يدخل السعادة إلى معظم البيوت الموجودة على كوكب الأرض وسئل عن كيفية تحقيقه لذلك فقال: «إذا استطعت أن تحلم بشيء فسيمكنك تحقيقه...». ليس بالضرورة أن تكون عظيماً لكي تحلم، ولكن عليك أن تحلم لكي تكون عظيماً.

مسكين... لا يعلم أنه قد مات!

يخرج من بيته كل يوم وهو يجر نفسه نحو سيارته، وما أن ينطلق على الطريق حتى يبدأ إعصار الأفكار يعصف برأسه ويحطم كل شعور جميل قد يتبادر إليه. يصل إلى عمله وكأنه وصل إلى المقبرة... يسمع نواحاً هنا وتراتيل هناك... يرى وجوهاً مكفهرة وأخرى ترهقها قترة... يفتح باب مكتبه... يضعونه في لحده... يغلق الباب... يتسارع الكل ليكيل عليه التراب... ظلام دامس يحيط به من كل جهة... أحمد صباح الخير!

يستفيق من سرحانه وكأن روحه قد رُدّت إليه، يدرك أنه في المكتب وأن ما كان يراه ما هو إلا خيالات ألقت بظلالها على حياته التي أصبحت خليطاً بين الحياة والموت. فهو يعيش ليعمل ولا يعمل ليعيش، كالآلة تماماً يعمل ليل نهار مقابل مبلغ لا يأبه بحجمه، فعلى الرغم من أنه يتقاضى راتباً سخياً إلا أنه كان أكثر سعادة عندما كان يتقاضى ثلث هذا الراتب، فعندها كان العمل جزءاً من حياته، ولم تكن حياته جزءاً من العمل.

ليست هذه كلمات نثرية لتسلية القارئ، وإنما بعض ما خالج أحد زملائي من أحاسيس عندما سألته عن سبب تعاسته. فكلما رأيته وجدته شارد الذهن كئيب القسمات وكأن به مرضاً عضالاً. صديقي هذا هو واحد من آلاف كثر ركبوا قطار «الوظائف العليا» وظنوا بأنه سيتوقف يوماً ما... وما زالوا يأملون أن يتوقف هذا القطار الذي ما أن انطلق حتى حجب عن أنظارهم جمال الحياة وألوانها الزاهية من شدّة سرعته، وجعل جميع المناظر الجميلة التي يمرون عليها ضبابية تماماً مثل الذكريات... ولعل الذكريات تنفع أحياناً في نقل المرء من عالم إلى آخر، فكما قال جبران: «التذكار شكل من أشكال اللقاء».

يقول لي صديقي بأنه منذ أن انخرط في وظيفته الحالية وهو لا يعرف في الحياة شيئاً غيرها، حتى أنه يظن أحياناً بأن جدته التي توفيت قبل أكثر من ست سنوات ما زالت على قيد الحياة... مسكين، أراد يوماً أن ينادي أخته فنسي اسمها... مسكين، قال لي مرة بأنه يصلّي العشاء ثلاث أو أربع مرات، مسكين، لا يعلم بأنه قد مات. هكذا يصف لي حالته عندما يحاول أن يستشعر التيه الذي يمرّ به حيث يظن أحياناً بأنه قد مات منذ زمن، ولكن دون أن يدري.

إلا أنه في المقابل يقود مؤسسة بها مئات الموظفين، ويدير مشاريع حيوية جداً تفيد اقتصاد بلده وسمعتها... ولكنها لا تفيده،

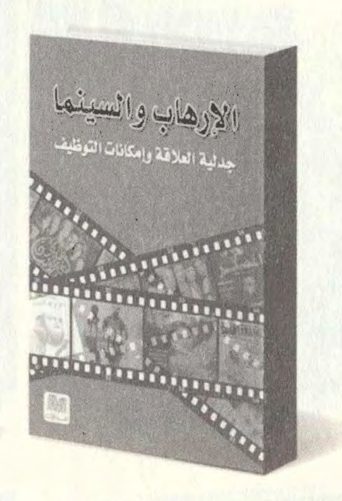
ويلقي كل شهر محاضرة على الأقل في أحد المجالات التي يتقنها... ولكنه لا يتقن غيرها لأنه جعلها الشيء الوحيد في حياته، فكلامه عن وظيفته، وطموحه في وظيفته، وموته أيضاً في وظيفته. يقول لي بأنه شاب طموح جداً، حتى أنه يتخيّل نفسه أكثر طموحاً من الإسكندر الأكبر الذي أراد أن يحكم الأرض... ولكن الإسكندر لم يكن يعرف ماذا يريد!

في كل مرة يحضر فيها دورة تدريبية يعقد العزم على تغيير مجرى حياته إلى الأفضل، ويضع خطة ـ غير مكتوبة ـ لتنمية جوانب أخرى في حياته. مسكين، لا يعلم بأن الوظيفة هي كل حياته وأن يوم وفاته سيكون يوم تقاعده... إذا وصل إلى سن التقاعد... ولكن كيف يتقاعد الميت!

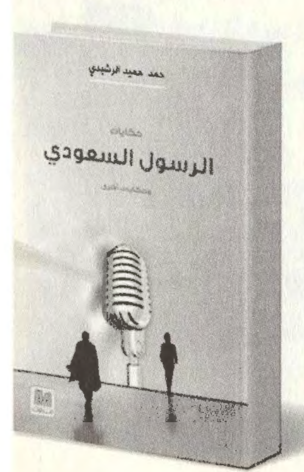
حمل ابنته يوماً بين ذراعيه وأخذ ينظر إليها وهي تداعبه... ضحكت وهو يحدق بها، بكت وهو ما زال محدقاً، دفعت وجهه فسقط على جنبه وسقطت معه مسكين، لا يعلم بأنه قد مات.

من إصدارات مدارك Madarek

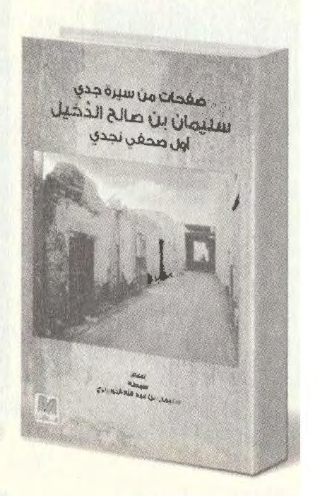




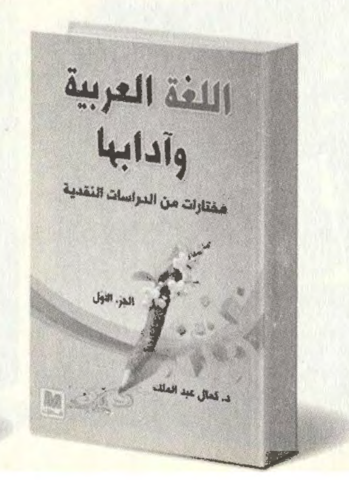















السيد علي الأمين
الأحزاب الدينية

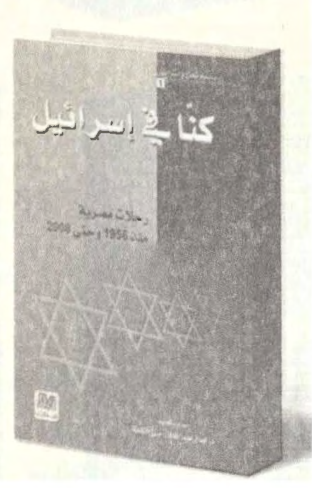

السيد علي الأمين
ولاية الدولة
ودولة الفقيه


المرأة
والولاية العامة


حكاية اسمها
غازي القصيبي
أعدها
كمال عبد القادر


تشيع العوام
وتشيع الخواص


صورة أوروبا
في
الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح


كنا في إسرائيل
رحلات مصرية
منذ 1956 وحتى 2008


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
1668 - 1995


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
ما بعد 11 سبتمبر 2001


تركي الدخيل
الدنيا... امرأة!


سلمان العودة
من السجن إلى التنوير
تركي الدخيل

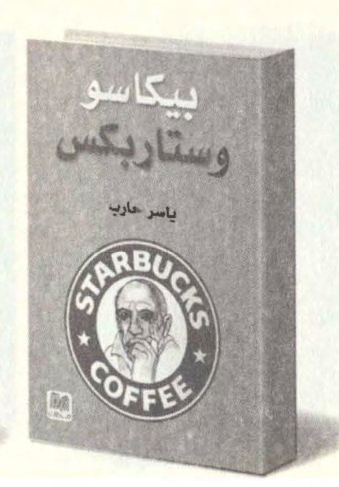

تركي الدخيل
إنما نحن... جوقة العميان

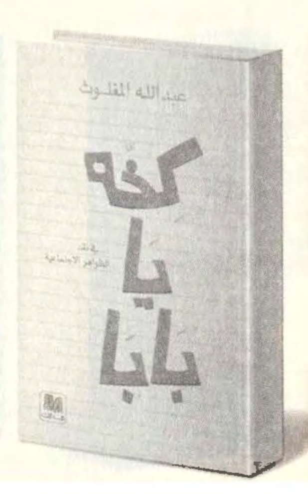

الدكتور أحمد اللويمي
المجتمع
الأحسائي المعاصر
قراءة في طباعه وأفكاره


نازح من جازان
مفاجآت التمرد الحوثي
على الحدود السعودية
هادي فقيهي


تغطية العالم!
بدعة الإلزام بتغطية الوجه
أحمد السيد عطيف


خارج الطائفة
د. علي أحمد الديري

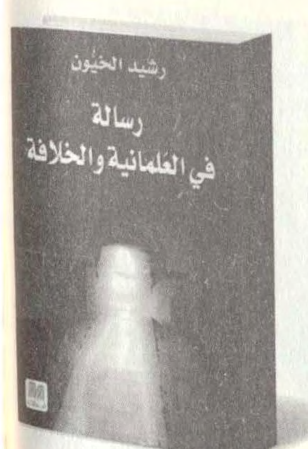

بيكاسو
وستاربكس
ياسر حارب
STARBUCKS
COFFEE


عبدالله المغلوث
كخه
يا
بابا


رشيد الخيّون
بَعد إذنِ الفَقيه
الحرام والحلال في أمر النساء والطفولة والكتابة والطعام


تَلخيص البَيَانِ
في ذِكرِ
فِرقِ أهْلِ الأديانِ

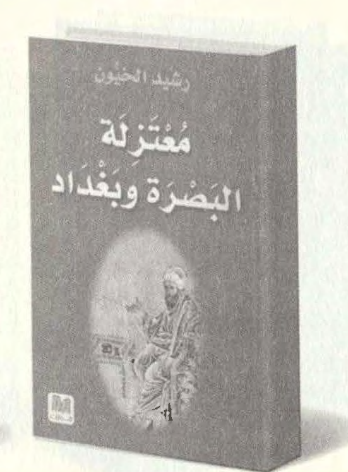

رشيد الخيّون
عمائم سُود
بـ
القصر السّعودي
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز


رشيد الخيّون
رسالة
في العَلمانية والخلافة


رشيد الخيّون
ضد الطّائفيّة
العراق... جدل ما بعد نيسان 2003


رشيد الخيّون
لا إسلام بلا مَذاهب
و
طُروس أخر من التراث


الحب والفراق
إنَّه محمد عبده يماني
كمال عبد القادر

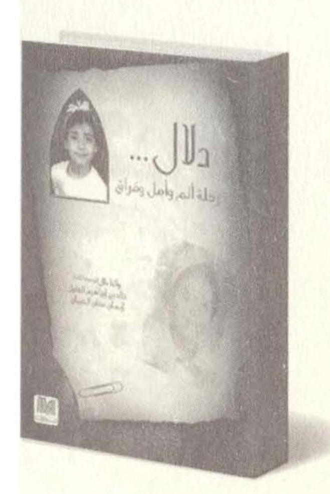

رشيد الخيّون
مُعتَزِلة
البَصرَة وبَغْداد

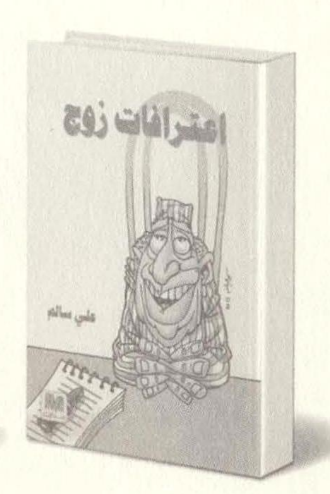

رشيد الخيّون
جَدَلُ التّنزيلِ
مع كتاب
خلقِ القرآنِ للجاحظ


الضحك في عز النكد
علي سالم
إذا كنت مسافراً خذني معك


التطرف وثقافة السلام
علي سالم


أعمدة الضحك السبعة
علي سالم


دلال...
رحلة ألم وأمل وفراق


اعترافات زوج
علي سالم


علي سالم
بكالوريوس في حكم
الشعوب

بيكاسو وستاربكس

في بعض المجتمعات العربية، يَندُر أن تجد من يقول لك «أنت ناجح»، ولكن من السهل أن تجد من يقول «أنت مخطئ»، وهذا أحد أسباب التراجع العربي. ولذلك لا يشعر غالبية المبدعين في تلك المجتمعات بالأمان المعرفي، ويسعون إلى استرضاء طائفة فكرية معيّنة، حتى يجدوا لديها تشجيعاً أياً كانت صيغته. فيتحول المبدعون في هذه الحال إلى نسخ مكررة، تُردد نفس الشعارات، وتستشهد بنفس المقولات التي يتداولها مَن حولهم. لا أؤمن بالأمثال كثيراً، وقلّما أستخدمها في حياتي، فالأمثال تجارب إنسانية لبشر مروا قبلنا، قد يخطئون وقد يصيبون، وكلا مهم ليس من التنزيل حتى يُنزَّه عن الخطأ.

في هذا الكتاب، قد لا تجد من يقول لك «أنت ناجح» ولكنك بالتأكيد لن تجد من يقول لك «أنت مخطئ».

علي مولا



